

# أنداء الفجر

أحمد زكي أبو شادي



# أنداء الفجر



# أنداء الفجر

تأليف  
أحمد زكي أبو شادي



رقم إيداع ٢٠١٣/٨٩١٤

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٢٩١ ٠

**مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة**

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

## المحتويات

٧

٩

١٣

٤١

إهداء الديوان

تصدير

شعر الديوان

دراسات أدبية



## إهداء الديوان

### إلى زينب

شُعْلَةُ الْحُبِّ عَنْ وَثُوبٍ وَوَمَضٍ  
وَفُؤَادِي بِنَبْضِهِ أَي نَبْضِ  
وَى أَمَامِي فِي كُلِّ صَحْوٍ وَعَمَضٍ  
مَرَحَبًا بِالْحَيَالِ لِمَسِي وَقَبْضِي!  
كنثير الحيا على زهر روض  
بأكيًا لأهيا بأنسي ورکضي  
من حياك السخي لا جود أرضي  
نظرة الحب ينتفض مثل نفضي  
وحضعنا لحكم دهر ممض  
ن على ذلك الصبا المنقض  
في وفاء وليس غيرك حفضي!

رُبُّعُ قَرْنٍ مَضَى وَهَيْهَاتَ تَمْضِي  
لَمْ أزلْ ذَلِكَ الْفَتَى فِي جُنُونِي  
زِكْرِيَّاتُ الْهَوَى وَأَشْبَاحُهُ النَّشْ  
أَنَا مِنْهَا فَكَيْفَ أَرْتَدُّ عَنْهَا؟!  
نُشِرَتْ فِي السُّطُورِ بَعْدَ احْتِجَابٍ  
فَإِذَا بِي أَعُودُ طِفْلاً صَغِيرًا  
فَأَقْبَلِي يَا سَمَاءَ وَحَيِّي زُهُورًا  
وَأَعِيدِي عَلَيَّ الصَّبَا فِي نَظِيمِي  
كَمْ شَقِينَا تَفَرُّقًا وَحِيَاءً  
وَرَجَعْنَا نَنُوحُ نَوْحَ يَتِيمِي—  
عَلِمَ الْحَبُّ لَيْسَ غَيْرِكُ مَجْدِي

يولية سنة ١٩٣٤

أحمد زكي أبو شادي





## تصدير

### بقلم محمد عبد الغفور

لا أعرف لذةً روحيةً أشهى لديّ من كتابة هذا التصدير للطبعة الثانية من ديوان (أنداء الفجر) – أول دواوين أبي شادي – فقد تجاوزت روعي مع عواطف هذا الشاعر العبقرى وأخيلته العلوية تجاوزًا هو سر سعادتي النفسية كلما اصطحبتُ روائعه الساحرة وتمثلت شخصيته الآسرة.

لقد مضى ربع قرن على هذا الشعر الفتى، وأعلم أن أبا شادي هو أول ناقد له، فهو دائم التطلع إلى الكمال ولا يرضى عن آثاره الحاضرة فما بالك بآثاره القديمة، ومع ذلك فأثار الصبا لها جمالها ولها ذكرياتها العذبة وإن اقترنت بالألم الدفين، وإن لم تخلُ من ضعف ... وإذن فقد أحسن شعراء أبولو الذين ألحوا بإعادة طبع هذا الديوان الصغير، فإن فيه ذكريات عزيزة لا يستطيع أبو شادي نفسه أن يتجاهلها؛ فهو ما يزال يقاتل منها، وإن فيها لبذرة من بذور الإصلاح التي كونت مدرسة الشعر المصري الحديث، وإن فيها لدلائل كافية على الشمائل الأدبية والمواهب الفنية التي طُبع عليها شاعرنا وضمنت له ما نال من تفوق.

لا أريد أن أسهب في هذا التصدير فأرأني في شعر أبي شادي معروفة<sup>١</sup>، وسأكتفي بالتنبيه إلى المواضع النقدية البارزة:

(١) يُلاحظ بسهولة أنَّ أبا شادي الفتى هو أبو شادي الكهل: شاعر الحب والجمال، ومن الطبيعي أن يكون ذلك من روح الصبا ولكنه روحٌ قويٌّ متصلُّ الأسباب والنوازع حتى الآن. وأبو شادي الفتى يتأمر عليه الحياء (وهو يصرح بذلك في أكثر من موضع في شعره)، ولا يزال هكذا أبو شادي الكهل، ولا ترى شذوذه عن ذلك في شعر كهولته إلا نادراً، وربما لم يكن له شخصياً فضلاً في مصارعة ذلك الحياء الذي أفسد عليه حياته العاطفية، وهو دائمٌ التسامي في حبه، ولو حاول عكس ذلك فسرعان ما يلتجئ بفطرته ثانيةً إلى ذلك التسامي. وهذا الديوان الصغير لا يمثل نكبته الغرامية فيما بعد، ولكنه يمثل قلقه أصدق تمثيل في تلك الفترة من حياته.

(٢) نرى أن الألم الممض يلجُّ بالشاعر منذ حدثته: وآية ذلك أنه نشأ نشأة حزينة قاسية مبعثها الفرقة بين الوالدين، فذاق ألواناً من الحرمان والهموم واقتات بالكآبة والألم منذ طفولته، وزاده اعتلال صحته في صغره. بيد أنه مثال مجسم للشمم وعزة النفس منذ نشأته، معتدداً دائماً بها ولكن في غير غرور، شأن الفنان الموهوب الكمالى النزعة. وقضى الشاعر صباه في عهد من القلق السياسي الذي ثارت فيه نفوس الشبان، فنرى آلام الوطنية متوثبة متأججة من بيوت شعره، ونسمع صيحته:

قَلِيلٌ عَلَى الْأَحْزَانِ مَا انْهَدَّ مِنْ جِسْمِي إِذَا كَانَ عَيْشُ الْحُرِّ أَشْبَهَ بِالْإِثْمِ!

(٣) نرى أن ولوع أبي شادي بالمعنويات هو هو منذ حدثته (انظر قصيدته «المعنى الأقدس»)، كما نرى افتتاحه منذ نعومة أظفاره بحياة الطبيعة ورموزها — ولا أقول بمشاهدها فقط — متغلباً عليه، ونلمح حبه للاطلاع (انظر قصيدة «موسيقى الوجود»)، وجراءته في التخيل والتعبير (انظر قصيدة «الخالق الفنان»)، وإنسانيته العميقة وتأملاته الفلسفية (انظر «فؤادي» و«مسرح الليل» و«أنداء الفجر» وأمثالها من شعره). وإن كانت نماذج ذلك الشعر بعيدة بطبيعة الحال عن أن تمثل نضوجه الفني الحاضر، ولكنها جميعاً لها طابع شخصيته الطليقة القوية.

<sup>١</sup> راجع كتاب (أبو شادي في الميزان).

(٤) لا يمكننا أن نحدّد شعر أبي شادي فنضعه في قسم معين؛ لأن نفسه طموحة متعددة الجوانب عالمية النظرات، وشواهد ذلك لا تخفى على الناقد حتى في شعر صباه الذي يسبق سنه بمراحل بعيدة.

ولكن لنا أن نقول: إن أبا شادي في شعره لا يخاطب جيله وحده بل يخاطب أجيالاً لم توجد بعد ويخاطب الغيب والمجهول، وله شره فكري وروحي فلا يقنع بشيء مما يراه أو مما ينظمه. وهو برغم قوته أمين كل الأمانة للطبيعة، فلا ترى فيه الخيال الفاسد ولا الأوصاف الميكانيكية ولا المغالطات المنطقية ولا المحاكاة التي يلجأ إليها الضعفاء وأهل الصناعة، وإنما تجد روحاً جبارة شاملة، عظيمة الشره، قوية الطاقة إحساساً وتفكيراً، طموحة إلى الكمال الفني، تستلهم الوجود بأسره كما تستلهم ملكاتها الذاتية، لا تقنع أبداً بإبداعها وإن عظم ذلك الإبداع، وتشعر دائماً بحسرة على ما عجزت عن تبيانه، متناسية ما أنجبته كأنه لا شيء، فتعيش دائماً في قلق وطمأ ولهفة.

(٥) نلمح السخط على البيئة في شعر أبي شادي منذ صباه، ونلمح هذا السخط مضاعف الشعلة في دواوين شعره الحديث بعد غيابه الطويل في إنجلترا. ولا عجب في ذلك فقد نشأ شاعرنا من الوجهة الثقافية والنفسية نشأة عالية لم تفسدها المتاعب والهموم العائلية في طفولته وصباه وإن صبغتها بلون قاتم، واتخذ خلقه الإنساني صوراً عملية شتى من البر والوطنية والتضحية لازمته منذ نشأته، فكان رجلاً ناضجاً وهو في سن الشباب. ولبث يعمل ويضحى بينما يقنع كثيرون بالثرثرة والدعابات إلى وقتنا هذا، فيلاقي الوفاء مرة ويلاقي الجحود مرات، وقد صدق عليه قول الأحوص في لاميته المشهورة:

متحملٌ ثقلَ الأمورِ حوى له	سبقَ المكارمِ سابقٌ مُتَمَهِّلٌ
وتكون معقلهم إذا لم ينجم	من شرٍّ ما يخشون إلا المعقل
وأراك تفعل ما تقول، وبعضهم	مدقُّ الحديثِ يقول ما لا يفعل

وما زال على هذا الخلق الفذّ النبيل والنشاط العجيب إلى وقتنا الحاضر الذي يحمل فيه على كتفيه من الأعباء العامة ومن خدمة الثقافة العالية ما تنوء دونه الجماعات ... والرجل يبذل دم قلبه وعصارة روحه ونور عينيه ورزقه ورزق أولاده فيما كُلف به من مثّل عليا، فلا يلاقي في معظم الأحوال غير الإساءات والجحود، بل والمن أيضاً من كثيرين ممن غمرتهم ديمقراطيته الأدبية بحبه وإحسانه ومؤازرته الجمّة، فلم يعنهم

من كل هذا إلا أن يتعرعوا بفضل رعايته، وإلا أن يصعدوا على أكتافه ثم يَعَضُّوا اليد الكريمة التي خلقتهم من لا شيء، أو التي أخرجتهم من الظلمات إلى النور ... ولا أتردد في أن أقول غير مدافع: إن أبا شادي الرجل الإنسانيِّ والمثاليَّ الشاعر، هو رجل التضحية المنقطع النظير في هذا البلد الذي كثيراً ما اعتزَّ فيه المهرجون وأدباء المقاهي. ولم يحاربه ولن يحاربه إلا المخدوعون وأهل الأراجيف والأدعياء، وحيويته العملية هي حيوية شعره الخالد، وشكواه من البيئة هي شكوى الطعين الغيبين الذي مهما شكَا فلن يعرف الحقدُ سبيلاً إلى قلبه الطاهر، ولن تنال الأحداثُ مثقالَ ذرة من عزمه الفولاذيِّ ولا من نفسه الوديدة القاهرة.

هذه هي الصفات النفسية البارزة التي تألَّف وما يزال يتألَّف منها شعر أبي شادي، والتي نحيتها في شعر صباه كما نحيتها في شعر شبابه وكهولته. وشاعرنا واسع الاطلاع والتجارب، بعيدُ الجراءة، كارهٌ للتقاليد الجامدة وإن لم يكن هو من المتجرِّدين، وكلُّ هذا ملموحٌ في غاياته الشعرية وفي أساليبه. وإذا استثنينا زفراته وصرخاته المتكررة في وجه البيئة الجاحدة العاقبة، فإننا لا نجد أبا شادي مَنْ يعبأ بعد ذلك بالناس إلا من ناحيتين: الناحية المثالية التي يتطلع إليها تطلُّع الأنبياء للتسامي بالإنسانية، والناحية الفنية المحضة من اتخاذهم مادةً كبقية موادَّ الطبيعة لشعره الحيِّ.

## شعر الديوان

### (١) أُنْدَاءُ الْفَجْرِ

مِنْ دُمُوعِ النُّجُومِ، مِنْ سَهْرِ الْعَا  
فِي حَنَانِ وَرَقَّةٍ وَهِيَ لَا تَمُ  
فِي تَعُورِ الْأَزْهَارِ، فِي أَلْقِ الْعُشِ  
وَهَبَتْ حُسْنَهَا الضَّحِيَّةَ لِلشَّمِ  
وَيَعُودُ الْفَجْرُ الْوَفِيُّ بِهَا بَعْدَ  
هِيَ مِلْكٌ لَنَا حَيَاةً وَمَوْتًا  
شَقِ صِيغَتْ وَمِنْ رَجَاءِ الْحَيَاةِ  
لَكَ مِنْ عُمْرِهَا سِوَى لَحْظَاتِ  
بِ، وَفَوْقَ الْعُصُونِ تَحْيَا وَتَفُنِّي  
سِ كَأَنَّ الْفَنَاءَ لِلشَّمْسِ أَغْنَى  
حَتَّى وَلَكِنْ تَعُودُ تَمْضِي الضَّحِيَّةُ  
وَهِيَ بِالرُّوحِ صُورَةُ الْأَبَدِيَّةِ

### (٢) الحب والأمل (نظمها الشاعر وهو عليل)

وَفِي الرَّبِيعِ فَحِيَّ الْحَبِّ وَالْأَمَلِ  
وَاحْفَظْ حَدِيثَ الْغَوَانِي فِي أَزْهَرِهِ  
مِنْ كُلِّ هَيْفَاءٍ إِنْ مَاسَتْ وَإِنْ نَظَرْتَ  
رَنْتُ إِلَيَّ بِلِحْظٍ نَاطِقٍ لِعَبِّ  
وسائلُ الذِّكْرِ إِنْ كَانَ الْفَوَادُ سَلَا  
وَاحْرَضَ عَلَى النَّفْسِ أَنْ يُدْنِيَ لَهَا الْأَجَلَا  
لَمْ تَتْرِكْ الْقَلْبَ إِلَّا حَائِرًا وَجِلَا  
وَالسُّحْرُ إِنْ عَزَّ لَا أَبْغِي لَهُ بَدَلَا

يَا رَائِقَ الشُّعْرِ هَلْ بَلَّغْتَنَا نَبَأً  
يَخْطُو إِلَى الْمَوْتِ وَالْإِلَامِ تَلْفُتُهُ  
لَيْتَ الْوَفِيِّ الَّذِي تَنْسَى مُرْوَعْتُهُ  
إِنْ عَاشَ كَانَتْ عَلَى التَّسْهِيدِ نَضْرَتُهُ  
لَا يَسْتَقِرُّ لَهُ رَأْيٌ عَلَى سَبَبِ  
سَهْلٍ لَدَيْهِ التَّنَاسِّي عَنْ مَدَامِعِهِ  
رَأَى النَّعِيمَ هُمُومًا فِي صَبَابَتِهِ  
مَا أَجْزَعَ الصَّبَّ يُبْكِيهِ مُتَيَّمُهُ

\*\*\*

وَدَعَتْ هَمِّي، وَهَمِّي كُلُّهُ أَمَلٌ  
مَرَّتْ كَحُلْمٍ يُجَارِيهِ الدَّلَالُ فَلَا  
وَدَاعِبْتَنِي بِصَوْتِ خَافِتٍ وَبَكَتْ  
الدَّهْرُ فَرَّقَنَا، وَالدَّهْرُ أَلْفَنَا  
الْكُونُ زَاهٍ قَشِيبٌ، وَالظَّلَامُ سَنَا  
فَاجِلُ الْقَرِيضِ وَحَدَّثَ طَائِرًا عَرِدًا  
فَسِرْتُ فِي الرُّوضِ مِنْ فَرَطِ الْهُوَى تَمَلًا  
وَالطَّيْرُ دَانَ فَلَمَّا جِئْتَهُ خَطِرْتُ  
وَاللَّهِ لَسْتُ الَّذِي يَرْضَى السُّهَادَ لَهُ  
يَا طَيْرُ أَلَمْتَ نَفْسِي - كُلُّنَا دَنَفُ  
وَيَا زُهُورًا كَسَاهَا مِنْ مَدَامِعِهِ  
وَيَا شُعَاعًا سُحِرْنَا مِنْ تَأَلَّقِهِ  
وَيَا نُجُومًا تُوَافِينَا وَمَا بَرَحْتُ  
وَيَا أَدِيمًا جَلَسْنَا فِي بَدَائِعِهِ

<sup>١</sup> راحلاً من هذا العالم. يشير إلى مرض سابق.

<sup>٢</sup> ثنى: طوى.

وَيَا مَلَكَأ يُحَيِّينَا وَمَا فَتَتْتُ  
وَيَا زَمَانَا نَعْمَنَا مِنْ نَضَارَتِهِ  
وَيَا رَبُوعَا وَقَفْنَا فِي مَعَابِدِهَا  
لَا قُلْتُ مَعْنَى يَرُوقُ الشَّعْرَ جَوْهَرُهُ  
مِنْهُ اللَّحَاطُ سِهَامًا ... لَيْتَهُ غَفَلَا  
وَالْأُنْسُ وَقَفْتُ عَلَيْهِ دَامَ أَمْ أَفَلَا  
أَسْرَى الْجَمَالَ، نَزَفُ الْحُبِّ وَالْأَمَلَا  
لَوْ أَنَّ بَعْضَ نَعِيمِي مِنْ هَوَاكِ خَلَا!

### (٣) حياتان

أُمِّي (الطَّبِيعَةَ)! فِي نَجْوَاكِ إِسْعَادِي  
وَفِي جَمَى إِخْوَتِي مِنْ كُلِّ طَائِرَةٍ  
مَا بَالُهَا هِيَ صَفْوِي وَحَدَهَا فَإِذَا  
كَأَنَّهَا النَّاسَ أَعْدَاءُ: فَبَعْضُهُمْ  
وَفِي ابْتِعَادِي أُعَانِي دَهْرِي الْعَادِي  
وَكُلُّ نَبْتٍ نَبِيلٍ وَحِيكَ الْهَادِي  
رَجَعْتُ لِلنَّاسِ لَمْ أَظْفُرْ بِإِسْعَادِ  
حَرْبٍ لِبَعْضٍ وَحَسَادٍ لِحُسَادِ!

### (٤) حظ الناقلين

فَوَادِي بَرَعَمِ الْحَادِثَاتِ كَبِيرُ  
تَلِينُ لِي الْأَيَّامُ فِي كُلِّ شِدَّةٍ  
سَلَخْتُ مِنَ الْأَعْوَامِ بَضْعًا وَعَشْرَةً  
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِي الْقَلْبِ لَوْعَةٌ  
وَمَا انْقَطَعَتْ أَسْبَابُ أَنْسٍ وَنِعْمَةٍ  
وَطَرْفِي وَإِنْ عَزَّ الْعَفَافُ كَسِيرُ  
وَلَوْ أَنَّ جُلَّ الْفَاتِحِينَ أَسِيرُ  
أَقِيمَ عَلَى دِينِ الْعُلَى وَأَسِيرُ  
عَلَى أَنَّ كُلِّي هِمَّةٌ وَمَرِيرُ<sup>٣</sup>  
وَلَكِنْ حَظَّ النَّاقِمِينَ عَسِيرُ!

<sup>٣</sup> المرير: العزم.



(٥) التبرم

يَا رَبِّ! كَيْفَ خَلَقْتَنِي مُتَبَرِّمًا  
أَتْرَاكَ أَنْتَ مُعَلِّمِي، وَكَأَنَّمَا  
بِالنَّاسِ حِينَ وَدَدْتُ هَذَا النَّاسَ  
قَدْ عَشْتُ فِي نَدْمٍ وَعَشْتُ نُوَأْسَى!

(٦) الألوهية

مَلَكْتَ قَلْبًا عَلِيًّا  
فَرَأَيْتَ اللَّهَ فِيمَنْ  
وَسَائِلِ اللَّحْظِ عَمَّنْ  
وَسَامِحِ الْعَبْدِ يَوْمًا  
جَنَى الْغَرَامِ عَلَيْهِ  
فُوَادُهُ فِي يَدَيْهِ<sup>٤</sup>  
يَذُوبُ شَوْقًا إِلَيْهِ  
فَأَنْتَ رَبُّ لَدَيْهِ

(٧) الشاعر المصور

(أصلح الشاعر ببراعته صورة حبيبته التي لم يحسن المصور إخراجها)

كَذَبَ الضِّيَاءُ عَلَى الْمَصُورِ مَرَّةً  
فَوَضَعْتُ فِي كَفِّي يِرَاعَةَ عَاشِقٍ  
وَنَقَشْتُ تَأْثِيرَ الْعُيُونِ لِأَنْنِي  
أَخْفَى بِهَا الْمَشْهُودَ مِنْ آيَاتِهَا  
كَانَ الْبَيَانُ يَجُولُ فِي لِفَاتِهَا  
أَدْرَى بِوَقْعِ السَّحْرِ مِنْ نَظْرَاتِهَا

<sup>٤</sup> أي يقدمه إليك.

(٨) قوس قزح

مَلْهُي السَّمَاءَ يَرشُنَا بِنَثِيرِهِ  
وَالسُّحْبُ تَلْعَبُ فِيهِ لَعِبَةً صَاعِدِ  
وَالْمَاءُ ذُوبٌ أَشْعَّةٌ وَأَغَانِي  
أَوْ هَابِطٌ دَرَجًا مِّنَ الْأَلْوَانِ!

(٩) على صفحة الماء

يَشُقُّ الْقَارِبُ الْمَرْهُوُّ مِثْلِي  
فَيَكْسِرُ صَفْحَةَ لِلْمَاءِ رَاقَتِ  
طَرِيقًا فِي الْمِيَاهِ مَعَ ابْتِهَاجِي  
وَنَسْمَعُ صَوْتَ تَكْسِيرِ الرَّجَاجِ!

(١٠) إلى سجين القلم (محمد فريد بك)

مَنْ كَانَ يُدْرِكُ فِي الْوُجُودِ هَوَاكَ  
لَسْتَ الَّذِي يَجِدُ الْحَيَاةَ بَعْفَلَةً  
نَفْسٌ لَدَيْهَا الْمَجْدُ خِدْمَةٌ قَوْمِهَا  
تَشْقَى وَتَضْرَعُ أَنْ تَمُوتَ عَلَى هُدَى  
حَجَبُوا سَنَاكَ عَنِ الْعُيُونِ وَمَا دَرَوْا  
أَكْرَمْتَ نَفْسَكَ هَادِيًا وَمَفَادِيًا  
وَالْحُرُّ أَوْلَى أَنْ يَجُودَ بِنَفْسِهِ  
سِيَانٍ كُنْتَ بِنِعْمَةٍ أَوْ نِقْمَةٍ  
سِيَانٍ كُنْتَ مُقَرَّبًا أَوْ مُبْعَدًا  
وَكَفَّاكَ فَخْرًا أَنْ تُنَاضِلَ دَوْلَةً  
وَالْعَمْرُ سَاعَاتٌ يَطِيبُ أَمْرُهَا

أَسْفًا عَلَيْهِ إِذَا بَكَى وَلِحَاكَ  
وَيَعَافُ فِي بَثِّ الْيَقِينِ حِرَاكَ  
تَسْتَعْذِبُ الْأَلَامَ وَالْإِنْهَاكَ  
لَا تَرْهَبُ الْأَعْلَالَ وَالْأَشْرَاكَ  
أَنَّ الْقُلُوبَ خِلَالَهُنَّ سَنَاكَ  
شَعْبًا يُقِيمُ عَلَى الدَّوَامِ فِدَاكَ  
مَنْ أَنْ يَرُومَ عَنِ الصَّوَابِ فِجَاكَ  
مَا دُمْتَ تُرْضِي بِالْجِهَادِ حِجَاكَ  
مَا دَامَ حَرْبُ الْعَابِثِينَ مُنَاكَ  
كَمْ أَرْهَقْتَ مِنْ مُصْلِحِينَ سَوَاكَ  
لَوْ أَنَّ فِي حَسَمِ الضَّلَالِ هَلَاكَ

## (١١) عَهْدُ الصَّبَابَةِ

وَشَدْتُ فَرَجَّعْتُ الْقُلُوبَ رَيْنَا  
وَبَكْتُ فَكَانَ أُنَيْنُهَا التَّأِينَا!  
فَجَفْتُ وَكُنْتُ عَلَى الشَّقَاءِ أَمِينَا  
إِلَّا بِصِيرًا بِالْهُمُومِ رَزِينَا  
حَتَّى يَحِنَّ إِلَى الْبُكَاءِ حَنِينَا!  
إِلَّا شُعَاعًا كَاذِبًا مَظْنُونَا!  
وَوَهَبْتُ فِيهِ فُؤَادِي الْمَغْبُونَا  
أَمَلًا، وَعِشْتُ مُتَيِّمًا مَفْتُونَا  
مِنْ هَيْبَةٍ، مُسْتَغْفِرًا، مَسْجُونَا  
مَنْ لَا يَزَالُ عَلَى الْوَفِيِّ ضَنِينَا!

خَطَرْتُ فَمَكَّنْتُ الْهَوَى تَمَكِينًا  
نَزَعْتُ بِرِقَّتِهَا الشُّعُورَ فَأَشْفَقْتُ  
تَخَشَى الْمَلَامَةَ فِي الْغَرَامِ إِذَا عَفْتُ  
عَوَّدْتُ مَرَّ الْعَيْشِ حَتَّى لَمْ أَبْتُ  
مَا يَنْفَعُ الصَّبَّ الْكُتَيْبَ مِنَ الْجَوَى  
أَسْفِي عَلَى عَهْدِ الصَّبَابَةِ لَمْ يَكُنْ  
أَسْفِي عَلَيْهِ وَقَدْ فَقَدْتُ شَبَابَهُ  
وَضَلَلْتُ مَحْزُونًا أَكْفِكِفُ أَدْمُعِي  
مُتَصَدِّعًا مِنْ لَوْعَةٍ، مُتَرَاجِعًا  
يَا حَسْرَةَ الْقَلْبِ الضَّعِيفِ إِذَا رَجَا

## (١٢) غَدْرُ الْجَمَالِ

إِلَّا بِمَهْجَةٍ صَبَّهَا الْعَانِي  
إِلَّا الْمَشُوقَ لَطَرَفَهَا الرَّانِي  
مِنْ لِحْظِهَا الْمَتَخَشِّعِ الْجَانِي!

بَسَمْتُ فَمَا فَتَكْتُ وَمَا عِبْتُ  
وَرَنْتُ فَمَا أَحْيَيْتُ وَمَا قَتَلْتُ  
اللَّهُ فِي حُسْنٍ يَحْيِرُنَا

## (١٣) بَعْدُ الْفِرَاقِ

وَأَغْرَقْتُ فِي شَكْوَى تُخَفِّفُ مِنْ هَمِّي °

وَيَوْمَ أَثَارَ الْبَيْنِ كَامِنَ لَوْعَتِي

° حزني.

تَهَالَكْتُ مَا بَيْنَ الصَّبَابَةِ وَالسَّقْمِ  
 وَهَذَا الشَّقَاءُ الْعَذْبُ مِنْ مُنْتَهَى هَمِّي<sup>٦</sup>  
 إِذَا زَادَ حِفْظُ الْعَهْدِ غَمًّا عَلَى غَمِّي  
 تُسَاقُ بِهَا الْأَحْرَارُ لِلْخَسْفِ وَالضِّيمِ  
 وَخَلَّفَتْهَا بَيْنَ التَّلْفِتِ وَالْأَمِّ  
 فَأرسلت تَوَدِيعَ الْفُؤَادِ عَلَى الْيَمِّ  
 بِأَضْلَعْنَا بَيْنَ التَّكْتَمِ وَالنَّمِّ  
 تَفِيضُ لَدَى التَّذْكَارِ فِي مَدْمَعِي الْجَمِّ  
 وَمَا زَالَ مَمْلُوكًا عَلَى الطَّوْعِ وَالرَّغْمِ!

نَفَضْتُ الْكَرَى وَارْتَحْتُ لِلْبَيْتِ بَعْدَ مَا  
 يَكَادُ يَكُونُ الْحُبُّ دِينًا أَعَزَّهُ  
 وَلَكِنْ يَهُونُ الْبُؤْسُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ  
 نَزَحْتُ عِيوفًا عَنْ بِلَادِ أُجْبُهَا  
 أَقَمْتُ بِهَا عُمْرًا عَلَى الْوَجْدِ صَابِرًا  
 نَكَرْتُ بِهَا بَدْرًا ضَلَلْنَا لِبُعْدِهِ  
 سَلَامٌ عَلَى حُسْنِ دَفْنَا سَهَامَهُ  
 سَلَامٌ وَفِي نَفْسِي شُجُونٌ كَثِيرَةٌ  
 تَحَمَلْتُ قَلْبًا دَامَ رَهْنٌ وَدَادِهِمْ

#### (١٤) الطَّبُّ الْخَائِرُ

أَعْيَاهُ مَكَمَّنُ عَلْتِي وَدَوَائِي  
 أَلْفَ الْأَسَى لِتَسْقِلِ الْأَهْوَاءِ  
 أَوْ كُلُّ وَهْنٍ لِلْجُسُومِ بَدَاءِ  
 وَالْمَوْتُ مَوْتُ سَلَامَةِ الْأَرَاءِ  
 مَكْنُونَةٌ فِي أَنْفُسِ الضُّعَفَاءِ  
 قَدْ يَسْتَطِيبُ تَحْرُقَ التُّمَسَاءِ  
 أَيْنَ الشُّعُورُ وَحِكْمَةُ الرَّحْمَاءِ؟  
 وَالْمَرْءُ صُورَةٌ حِسِّهِ الْمُنْرَائِي

نَظَرَ الطَّبِيبُ إِلَيَّ نَظْرَةَ نَاقِدِ  
 وَالطَّبُّ يَقْصُرُ عَنْ شِفَاءِ مُسَهِّدِ  
 مَا كُلُّ بَأْسٍ فِي الْجُسُومِ بِصِحَّةِ  
 وَالْعَيْشُ عَيْشُ حَقَائِقِ وَدَقَائِقِ  
 نَفْسِي تَحْرُكُهَا الْهُمُومُ إِذَا بَدَتْ  
 وَالنَّاسُ فِي هَذِي الْحَيَاةِ غَنِيهِمْ  
 أَيْنَ الْعُقُولُ وَأَيْنَ أَرْبَابُ النُّهَى؟  
 فِي الْقَلْبِ هُمْ لَا أَجْلٌ بغيرِهِ

<sup>٦</sup> اهتمامي.

(١٥) دمعة على قبر

(قيلت في حسناء انتحرت يأساً لفقد عزيز لديها)

مُودَعَةٌ الْأَيَّامِ وَالْعَمْرُ شَقْوَةٌ  
فَزَعَتِ مِنَ الدَّارِ الَّتِي طَالَ هَمُّهَا  
نَفُوسٌ عَلَى الْوَجْدِ الَّذِي فِيكَ كُلُّهُ  
تَلَمَّسُ فِي الْأَحْزَانِ سَلْوَى، وَهَكَذَا  
أَمِيطِي لِئَامًا أَسْدَلَ الْمَوْتَ تَشْرِيقِي  
حَرَامٌ عَلَى قَلْبٍ عَرَفْنَا كَمَالَهُ  
حَرَامٌ عَلَى شَمْسٍ أَضَاءَتْ بِطُحُورِهَا  
حَرَامٌ عَلَى زَوْجٍ نَمُونَا بِمَائِهِ  
أَكَاغَانَ الرَّدَى حُلُوقًا لِفَقْدَتِهِ  
وَحَلَفْتِ أَمَالًا عَلَى الْعُسْرِ لَمْ تَحُلْ  
فِيَا دَهْرُ مَا أَفْسَاكَ! لِلْبَأْسِ غَايَةٌ  
حَذَانًا وَرَفَقًا بِالْأَلَى غَابَ أَنْسُهُمْ  
دُمُوعِي وَإِنْ قَلَّتْ — وَفِي الدَّمْعِ رَاحَةٌ —

\*\*\*

وَأَنْتِ أَيَا سِرًّا مِنَ اللَّهِ لَمْ نَكُنْ  
نَذَكْرُكَ مَبْكِيًّا شَبَابٌ خَذَلْتِهِ  
بَخَلْتِ عَلَى الْوَافِينَ بِالْعَيْشِ وَالرَّدَى  
فَلَا تَهْزِيئِي مِنْ عِبْرَةٍ هَاجَهَا الْأَسَى  
وَلَا تَضْحَكِي مِنْ دَارِ جَهْلٍ وَنِقْمَةٍ  
فَمَا الْبُؤْسُ كُلُّ الْبُؤْسِ فِي الْفَضْلِ وَالْهُدَى  
وَلَيْسَ جَزَاءُ الْأَمِيَّةِ بِالْحَيِّ يُرْتَجَى  
فَخَارُكَ فِي الدُّنْيَا عَفَافٌ عَبْدُتِهِ  
إِذَا قُلْتِ لَمْ أَنْطِقْ عَنِ الزَّيْغِ وَالْهَوَى  
جَمَالِكَ فِي نَفْسِي، وَذَكَرِكَ فِي فَمِي

(١٦) الدنيا

لَمَسْتُ قَلْبِي بِكَفِّ مَسَّهَا وَجَلُّ  
مَنْ الْخُفُوقِ فَلَمْ أَعْرِفْ لَهُ سَبَبًا  
إِنْ كَانَ هَمِّي مِنَ الدُّنْيَا وَفَتْنَتِهَا  
عَمَّ الْهُوَانُ فَمَا بَاتَ الشَّقَا عَجَبًا

(١٧) الرَّاحِلُ الْمُقِيمُ

قليلت في جنازة المرحوم محمود عبد الغفار بك النائب الوطني الكبير والعضو بمجلس  
المعارف الأعلى)

مَاذَا تُؤَمِّلُ مِنْ رَحِيمِ صَامِتٍ  
يَبْكِي عَلَيْهِ النَّاشِئُونَ وَمَا بَكَوْا  
وَالذُّكْرُ يَفْقِدُهُ الْخَوَّونُ لِقَوْمِهِ  
وَالْعَقْلُ أَسْحَفُ مَا يَكُونُ مُوَلِّهَا  
غَضُّوا الْعُيُونَ فَمَا الرَّجَالُ بِكَثْرَةٍ  
وَأَصْغُوا إِلَى صَوْتِ تَرَدَّدِ دَاوِيَا:  
فَالْمَوْتُ أَصْدَقُ نَاطِقٍ عَنْ عِبْرَةٍ  
وَالْخُلْدُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ لَوْ أَنَّهَا  
وَالْمَوْتُ حَقٌّ وَالْمُؤَمِّلُ رَاحِلٌ؟  
جَسَدًا يُشَيِّعُهُ الْجَبَانُ الْعَاظِلُ  
وَالْحُرُّ يَرْفَعُهُ الشُّعُورُ الْكَافِلُ  
بِأَسَا يَعِزُّ بِهِ الذَّلِيلُ السَّافِلُ  
وَابْكُوا فَقَدْ ذَهَبَ الْحَكِيمُ الْعَامِلُ  
إِنَّ الْحَيَاةَ مَآثِرٌ وَجَلَائِلُ  
وَالْفَضْلُ يَعْرِفُهُ الْأَبْيُّ الْفَاضِلُ  
تُعْزَى إِلَيْهِ رَوَاتِبٌ وَمَنَازِلُ!

(١٨) شَفِيعِي

شَفِيعِي لَدَى الْحُسْنِ الَّذِي لَاحَ سِرُّهُ  
خَيَالٌ أَطَالَ الْحُبَّ مَثْوَاهُ أَمَّنَا  
إِذَا كَانَ لَا يَزِيحُنِي لِضَعْفِي وَشَقْوَتِي  
أَرْوْمُ النَّوَى — وَالْبُعْدُ فِي ذِكْرِهِ جَوَى —  
وَمَنْ كَانَ لَا يُحْيِيهِ سَخَطٌ وَلَا رَضَى  
بَعِيدًا وَمَا أَدْرِيهِ فِي لَحْظَةِ الْقُرْبِ  
بِنَفْسِي، وَصَفْوُ الْعَيْشِ فِي سَكْرَةِ الْحُبِّ  
فَإِنِّي بِرَغْمِ «الْعَهْدِ» أَشْكُو إِلَى رَبِّي  
وَهَيْهَاتَ بَعْدَ الْبَيْنِ يُسْعِدُنِي قَلْبِي  
فَكَيْفَ يُقْضَى الْعَيْشُ فِي حَيْرَةِ اللَّبِّ؟

(١٩) عيش الحر

إِذَا كَانَ عَيْشُ الْحُرِّ أَشْبَهَ بِالْإِنَّمِ  
وَحَوْلِي الْأَلَى يَبْكُونَ مِنْ حَشْيَةِ الْفَهْمِ!  
إِذَا غَابَ نُورُ الْحَسِّ بِالْحَالِكِ الْجَمِّ  
وَتَدَفَعَهَا الْأَطْمَاعُ لِلْحَسْفِ وَالضَّيْمِ  
تُحَرِّكُهَا الْغَايَاتُ فِي الْقَيْدِ وَالْكَمِّ  
أَحَقُّ بِفَقْدِ الذِّكْرِ لَا الْقَدْحِ وَالذِّمِّ!  
وَمَا يَصْنَعُ الْمَغْلُوبُ بِالسَّيْفِ وَالسَّهْمِ؟  
وَتَخْشَوْنَ مِنْ بَأْسِ الْحَقِيقَةِ وَالْعِلْمِ  
نَهَشُ إِلَى الذِّكْرَى فَكُونُوا عَلَى وَجْمِ!  
وَرُدُّوا الرِّزَايَا مِنْ غُرُورٍ وَمِنْ وَهْمِ  
وَهَيْهَاتَ أَنْ يَبْقَى بِنَاءٌ عَلَى ظُلْمِ  
وَكُلُّ فَسَادٍ أَوْ ضَلَالٍ إِلَى هَدْمِ  
تُقَدِّسُهُ لِأَزْتَدَ بِالْخَزْيِ وَالْغُرْمِ  
وَيَا ذُلًّا مَنْ يَرْضَى عَنِ الذُّلِّ وَالْهَمِّ!  
فَلَا بُدَّ مِنْ فَوْزِ الْمُجَاهِدِ فِي الْيَوْمِ!

قَلِيلٌ عَلَى الْأَحْزَانِ مَا انْتَهَدَ مِنْ جِسْمِي  
بَكَيْتُ وَمَا أَبْكِي عَلَى سَالِفِ الْهَوَى  
يَصِيحُونَ مِنْ خَوْفٍ عَلَى سِرِّ عَيْشِهِمْ  
جُسُومٌ عَلَى الْإِفْسَادِ تُفْنِي رَجَاءَنَا  
جُسُومٌ بِرَغْمِ الرَّجْرِ أُسْرَى لِعُضْبِيَّةِ  
وَمَنْ كَانَ لَا يُرْضِيهِ إِسْعَادُ قَوْمِهِ  
تُرِيدُونَ إِعْزَازَ النُّفُوسِ الَّتِي هَوَتْ  
تُرِيدُونَ تَسْخِيرَ الْعُقُولِ الَّتِي سَمَتْ  
أَفَيْقُوا فَإِنَّا أُمَّةَ الذَّهْرِ لَمْ نَزَلْ  
أَفَيْقُوا فَلَسْنَا الْيَوْمَ نُغْضِي عَلَى الْقَدَى  
فَهَيْهَاتَ تَسْتَعْلِي عَلَى الْحَقِّ قُوَّةٌ  
وَأَقْسِمُ أَنَّ الشُّعْبَ لَا بُدَّ يَعْتَلِي  
وَلَوْ شَاءَ رَبُّ الْمُلْكِ إِسْقَاطَ أُمَّةٍ  
فَيَا مُجْدَ مَنْ يَسْعَى بِنَفْسِ أَبِيَّةِ  
إِذَا صَحَّ أَنَّ الْأَمْسَ وَلَى بِخَيْبَةِ

(٢٠) إلى الصديق الشاعر الرقيق عبد الحليم حلمي المصري

عَدَيْتَ خِلًا بِحُكْمِ الْحُبِّ لَمْ يَنْمِ  
فَرِقَةَ الشَّعْرِ تُحْيِي مَيْتَ الْأَلَمِ؟  
وَمَا عَرَفْتُ شِفَاءَ الصَّبِّ فِي الْقَلَمِ  
وَيَبْسُمُ الرَّهْرِ فِي سُكْرِ وَفِي حُلْمِ  
يَحْيَا الْجَمَالَ بِهَا — نَاجٍ مِنَ الْعَدَمِ  
وَعَدُّ الْحَبِيبِ، وَأَذْنِي لَفْظُهُ لِفِمِّي!

يَا نَاشِرَ السُّحْرِ فِي يَوْمِ بَكَيْتُ بِهِ  
مَا كَانَ صَرْكَ لَوْ أَمَهَلْتَنَا زَمَانًا  
مَنْ الْبَيَانَ شِفَاءَ النُّفْسِ سَالِيَةً  
يَهْفُو الْجَمَالَ لِشَعْرِ قُلْتِ أَعْدْبِيَّةِ  
وَرُبَّ قَلْبٍ — لِمَعْنَى رُوحِهِ فِتْنٌ  
أَحْنُو عَلَيْهِ وَأَتْلُوهُ كَانَ بِهِ

فَمَا عَبَسْتُ قَلِيلًا فِي بَدَائِيَّتِهِ  
وَأَقْدَرُ النَّاسِ يُبْكِيهِمْ وَيُفْرِحُهُمْ  
إِلَّا طَرَبْتُ وَوَلَّى بَعْدَهَا نَدْمِي  
مَنْ رُوحِهِ الْحَيِّ فِي شِعْرِ وَفِي نَعْمِ

## (٢١) المعنى الأقدس

حَبِيبَتِي! أَنْتِ لِي مَعْنَى أَبْجَلُّهُ  
مَعْنَى تَقَدَّسَ فِي طَهْرٍ وَفِي أَلْقِ  
مَعْنَى أَظْلُّ سِنِينَ الْعُمْرِ أَنْشُدُهُ  
وَكُلُّ مَغْزَاهُ أَنْ أَلْقَاكِ فِي شَغْفِي  
فَوْقَ الْمَعَانِي الَّتِي تُحَكِّي بِتَعْبِيرِي  
كَالنُّورِ، لَكِنْ تَسَامَى عَنِ سُنَى النُّورِ  
وَلَسْتُ أَعْرِفُ مِنْهُ غَيْرَ تَقْصِيرِي  
كِلَاهُمَا فِي مَدَاهُ غَيْرُ مَحْصُورِ!

\* \* \*

رَضِيتُ هَذَا الصَّبَا قَرْبَانَ أَوْنَةٍ  
مَا دُمْتَ نَائِيَّةً عَنِّي فَفِي طَرِبِي  
يُجِيبُ فِكْرُكَ فِيهَا كُلَّ تَفْكِيرِي  
هَمْ، وَفِي مَرَجِي سَتَى الْأَعَاصِيرِ!

## (٢٢) بحر الأمانِي

حَمَدْتُ مِنَ الصَّبَا بَحْرَ الْأَمَانِي  
وَلَوْلَاهُ ارْتَطَمْتُ بِكُلِّ صَخْرٍ  
نَشَأْتُ عَلَى الدُّمُوعِ غِذَاءَ رُوجِي  
فَصِرْتُ إِذَا ابْتَسَمْتُ رَأَيْتُ دَمْعِي  
فَفِيهِ سَفِينَتِي وَبِهِ أَمَانِي  
فَكَمْ فِي الْعَيْشِ مِنْ نُوبِ الزَّمَانِ  
فَدَانَ إِلَيَّ بَوَاعِثُهَا كِيَانِي  
هُوَ الْبَسْمَاتُ فِي صُورِ الْمَعَانِي

\* \* \*

أَزِينِبُ! إِنْ حَيِّتُ فَمَا حَيَاتِي  
تَرَى هَلْ بَعْضُ أَشْوَاقِي يُرَجِّي  
كِلَانَا فِي الْهَوَى طِفْلٌ، وَلَكِنْ  
وَيَا بَحْرَ الْأَمَانِي أَنْتَ عَوْنِي  
سَوَاكِ، وَمَا عَدَاهَا الْأَنْ فَانِي  
لَدَيْكَ، أَمِ الطُّفُولَةَ لَا تَعَانِي؟!  
أَنَا الطُّفْلُ الْغَيْبِ، أَنَا الْمَعَانِي  
وَلَوْ عَرَقَ الْهَوَى بَيْنَ الْأَمَانِي!



(٢٣) فُوَادِي

تَشَجَّعْ فِي الْمَصَائِبِ يَا فُوَادِي  
 أَلَسْتَ كَجَوْهَرٍ فِي طِيٍّ جِسْمِي  
 إِذَا الْأَحْدَاثُ عَضَّتْ فِيكَ فَاكْسُرْ  
 وَلَا تَكْ فِي الْأَسَى لَحْمًا وَرَحْوًا  
 فُوَادِي مَا عَدَدْتُكَ بَعْضَ جِسْمِي  
 وَلَكِنْ نَفْحَةً طَافَتْ وَوَافَتْ  
 فَفِيكَ مِنَ النُّجُومِ شَوَاطِئُ نَارٍ  
 تَلُودُ بِكَ الْحَيَاةُ وَأَنْتَ مِنْهَا  
 فَصَاحِبُهَا مُصَاحِبَةُ الْمُقَدِّي  
 وَلَا تَجْزَعْ عَلَى دُنْيَا تُسَاوِي  
 فَفَيْمَا تَشْتَكِيهِ نَعِيمٌ يَأْسِ  
 وَكُنْ بِصَلَابَةِ الْحَجَرِ الْكَرِيمِ  
 حَبِيءٍ لَا يُعْرِفُ لِللَّئِيمِ؟  
 نُيُوبًا لَنْ تَنَالَ مِنَ الْعَظِيمِ  
 فَتَدْمَى بِالْكَلُومِ وَبِالْكَلُومِ  
 فَمَا أَضَلُّ الْقُلُوبِ مِنَ الْجُسُومِ  
 عَلَى حَفَقِ الشُّعَاعِ مِنَ النُّجُومِ  
 وَفِيكَ تَدْفُقُ النُّورَ الْعَمِيمِ  
 بِمَنْزِلَةِ الْيَتِيمِ مِنَ الْيَتِيمِ  
 وَلَا زِمَهَا مُلَازِمَةَ الْحَكِيمِ  
 نَفُوسَ الْبُهْمِ بِالْحَرِّ الصَّمِيمِ  
 وَبَعْضَ الْيَأْسِ مِنْ صُورِ النَّعِيمِ!

(٢٤) أول الشهداء

لَا تَدُنُّبُوا هَذَا الشَّهِيدَ فَإِنَّهُ  
 ذَهَبَ الضَّحِيَّةِ لِلْحَيَاةِ بِشَعْبِهِ  
 لَتُرَاثُ أَجْيَالٍ وَفَخْرٌ قُرُونٍ  
 مُتَنَزِّهًا عَنْ مُشْبِهِ وَقَرِينِ!

(٢٥) إِلَى صَدِيقِي الشَّاعِرِ الْمَجِيدِ عَلِيِّ الْغَايَاتِي<sup>٧</sup>

رَدَدْتُ شِعْرَكَ مُطْرَبًا وَعَلِيًّا  
 وَلَكُمْ أُرْدُ مِنَ الْجَمَالِ قَتِيلًا

<sup>٧</sup> أرسلت إليه لمناسبة ظهور ديوانه (وطنيتي)، وقد صور فيما بعد.

وَحَلَا الْأَيْنُنْ بِهِ فَكَانَ قَلِيلًا  
عَذْبًا بِأَمَالِ الْأَبْيِّ كَفِيلًا  
وَجَدَ النَّدَاءُ إِلَى الْقُلُوبِ سَبِيلًا  
أَجْرَى الْبَيَانَ مُهَذَّبًا وَصَقِيلًا  
جَذَلًا، وَأَعَشَقُ ذَلِكَ التَّمَثِيلًا  
طَبِعَ الْجَلَالَ بِهِ فَعَاشَ جَلِيلًا  
إِلَّا لِتَنْظَمَ لِلْهُدَى إِكْلِيلًا  
يَبْدُو بِأَيْدِي الْعَابِثِينَ ضَمِيلًا  
حُرُّ الْمَقَالِ وَأَنْتَ تَرْضِي (النَّبِيلَا)  
أَنْ لَا يَرُومَ عَنِ الصَّوَابِ بَدِيلًا

صَحَّ الشُّعُورُ بِهِ فَشَاقَ تَهَافُتِي  
قَبَّلْتُهُ وَوَعَيْتُهُ فَوَجَدْتُهُ  
وَإِذَا الْمُهَيْبُ تَرَفَّرَتْ آيَاتُهُ  
قَلَمٌ إِذَا أَجْرَى الْوَفَاءُ دُمُوعُهُ  
أَنَا مِنْ مَعَانَ نَضْرَةَ مُتَمَائِلٌ  
وَإِذَا الْبَيَانَ سَمَتْ بِهِ حَسَنَاتُهُ  
فَارِبًا بِشَعْرِكَ أَنْ يُدَالَ، وَلَا تَقُلْ  
إِنَّ الْبِرَاعَ وَإِنْ تَدَفَّقَ سِحْرُهُ  
فَأَذْكُرْ لَنَا قِيمَ الرَّجَالِ وَقُلْ لَنَا  
حَسَبُ الْعَظِيمِ جَلَالَةً وَسَعَادَةً

(٢٦) أَوْهَامٌ ...

فَمَا لِلْسَنَى حُدٌّ، وَمَا لِلْهُوَى حُدٌّ  
وَلَحْظُكَ بَسَامٌ، وَقَلْبُكَ مَنْقُدٌ  
يَبْنُ، فَلَوْ أَصَغَى الْمُغَرِّدُ لَمْ يَشُدُّ  
وَلِلْقَلْبِ دَاءٌ فِيكَ يَسْرِي وَيَشْتَدُّ  
وَلَوْلَا الْجَفَا مَا كُنْتَ تَبْكِي وَتَحْتَدُّ  
يَهُونُ، فَلَا غَمٌّ لَدَيْكَ وَلَا سَعْدٌ  
وَيَا لَجَلَالَ مِنْكَ مَا فَاتَهُ الصَّدُّ  
وَأَبْيُّ عَظِيمِ النَّفْسِ فِي شَرْعِهِ عَبْدٌ  
فَأَنْتَ عَلَى الْحَالِينَ تَفْنَى وَتَنْهَدُّ  
وَرُبَّ شَقَاءٍ دَامَ فِي مَذْهَبِي رَعْدٌ  
وَهُمُ الْفَتَى فِيمَا يُخَالُ بِهِ الْوَجْدُ

عَرَامُكَ لَا عَذْلٌ عَلَيْهِ وَلَا رَدُّ  
بَيَانُكَ غَلَابٌ، وَعُذْرُكَ مُفْجِمٌ  
يَبِيْتُ عَلَيْهِ خَافَتِ النَّبِضُ مُتَعَبًا  
إِلَى الْعَيْنِ مَا يُحْيِيكَ مِنْ خَطَرَةٍ حَلَّتْ  
وَلَوْلَا اللَّقَا مَا كُنْتَ جَذَلَانَ عَابِسًا  
حَيَاتُكَ لُغْرٌ، وَالْهُوَى كُلُّهُ جَوَى  
فَيَا لَشَبَابِ فِيكَ لَمْ تُبْقِهِ النَّوَى  
تَرَكْتَ لِحُكْمِ الْحُسْنِ نَفْسًا عَزِيزَةً  
وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ دَفْعِكَ السُّقْمَ وَالْأَسَى  
وَرُبَّ صَفَاءٍ عَزَّ فِي مَذْهَبِي عَنَا  
نَعِيمُ الْفَتَى فِيمَا يَرَى الْأُنْسَ حَوْلَهُ

(٢٧) حول تمثال مصطفى كامل

وَتَنَاسَ الْأَسَى وَهَمَّ اللَّيَالِي  
وَأَرْقَبَ الْمَجْدَ صَادِقًا فِي خَيَالِ  
تَدْعُ الْحُرَّ فِي إِسَارِ الْمَعَالِي  
قُ مَنَارَ الشُّعُورِ وَالْإِجْلَالِ  
بُ مَقَرَّ الْحَيَاةِ وَالْأَمَالِ  
رُ وَرَكْنُ الْهُدَى حَلِيفُ الزُّوَالِ؟!  
تُ، وَأَنْتَ الْعَظِيمُ فِي كُلِّ حَالِ

وَدَّعِ الْقَلْبَ بَيْنَ مُضْنَى وَخَالِ  
وَأَنْظُرِ الْعَقْلَ نَاطِقًا مِنْ جَمَادِ  
نَظَرَاتٍ عَلَى الْهَوَى بِأَقْيَاتِ  
وَشَبَابٍ مَا زَالَ تَصْوِيرُهُ الْحَقِّ  
وَحَيَاةٍ مَا زَالَ تَذَكُّارُهَا الْعَذِّ  
يَا أَمِيرَ النُّفُوسِ هَلْ يَنْقُضِي الْعُمُ  
نَحْنُ أَسْرَى عَلَى الْحَيَاةِ وَإِنْ جَلِّ

\* \* \*

لِوَفَاءٍ عَلَى الْمَدَى غَيْرُ بَالِ  
سِ مَهْيَبٌ لِمَخْلَدِ الْأَعْمَالِ  
دِ لِقَلْبٍ عَلَى الرَّدَى غَيْرُ خَالِ  
رِ كَمَا كُنْتَ يَا حَلِيفَ الْجَلَالِ  
رِ، كَمَا سُنْتُ يَا فَقِيدَ الْمَعَالِي  
قِ وَتَأْتِي بِأَصْدَقِ الْأَمْتَالِ  
مِ إِذَا أَحْفَقْتُ فُحُولَ الْمَقَالِ  
مِ فَخَارُ لَهُ وَلِلْتَمْتَالِ  
دِ وَكَمْ يُزْدَرَى بِحُسْنِ الْفِعَالِ  
لَا فَزَقَ بَيْنَ دَانَ وَعَالِ  
بِ وَإِنْ لَمْ تَثْبُ لِبَاسٍ وَمَالِ  
تِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ قَرِينَ الزُّوَالِ  
قِ وَيَا بَانِيًا قُلُوبَ الرَّجَالِ  
سِ، وَيَا نَاسِقًا صُرُوحَ الضَّلَالِ  
كِ وَتَعَزُّوْا إِلَيْكَ حُسْنَ الْمَالِ  
رِ بِدَمْعٍ عَلَى الْهَوَى فِيكَ غَالِ

لَكَ غَالٍ مِنَ الْهَوَى غَيْرُ بَالِ  
صَمْتُكَ الْيَوْمَ مِثْلُ سَعْيِكَ بِالْأَمِّ  
ضَجَعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةُ السُّهْدِ وَالْوَجِّ  
دُمُ حَلِيفِ الْجَلَالِ فِي حُفْرَةِ الْقَبِّ  
وَأَدِكِرُ مَصْرُ وَارْزَعِ الصَّوْتِ وَالذِّكْرِ  
تَخْطُبُ الدَّهْرَ مِنْ مَبِيتِكَ فِي الْخَلِّ  
وَتَهْزُ الْعُقُولَ لِلْحَزْمِ وَالْعَزِّ  
وَقَفَّةُ الشُّعْبِ عِنْدَ تَمْتَالِكَ الْيَوْمِ  
أَهْ! كَمْ يُخْطِئُ الْمُضَلُّ فِي الْخَلِّ  
إِنَّ مَجْدَ الْإِنْسَانِ فِي خِدْمَةِ الْإِنْسَانِ  
خَافِقَاتُ لَكَ الْقُلُوبُ مِنَ الْحُبِّ  
وَإِهْبَاتُ لَكَ الْحَيَاةُ عَلَى الْمَوْتِ  
يَا كَبِيرَ الْيَقِينِ فِي قُوَّةِ الْحَقِّ  
يَا كَثِيرَ الْإِبَاءِ فِي دَوْلَةِ الْبَغِّ  
أُمَّةٌ تَحْفَلُ الزَّمَانَ بِمَاضِيهِ  
وَتَحْيِي خَيَالَكَ اللَّيْلُ وَالْفَجِّ

\* \* \*

أَيُّهَا الصَّانِعُ الْمُصَوِّرُ إِجْلَالَ أُمَّةٍ  
كَيْفَ وَفَّقْتَ بَيْنَ عَهْدٍ وَمَجْدِيـ  
صَنْعُهُ تَخَجُّلُ الْبَيَانَ مِنَ الْحُسـ  
صُورَةَ تَفْتَنُ الْمُفَكِّرَ مَبْهُو  
ثِقُ بِشُكْرِ الْقُلُوبِ وَالْفَضْلِ وَالْجُو  
لَيْسَ بَدْعًا إِذَا حَلَفْتَ بِمَا أَتـ  
وَلَكَ اسْمٌ يَصُونُهُ أَتْرُ الْعِلـ

— تَعْبُدُ الْهُدَى — فِي جَلَالِ  
نِ وَمَا بَيْنَ وَصْفِ تِلْكَ الْخِلَالِ؟  
نِ وَتُزْهِى عَنْ كُلِّ سِحْرِ حَلَالِ  
تَا وَعَبْدًا لِيَصْمِتَ هَذَا الْجَمَالِ  
دِ، وَتَهُ فَاحِرًا بِذَاكَ الْكَمَالِ  
حَقْنَتْ صِدْقًا وَاخْتَلَّتْ أَيُّ اخْتِيَالِ  
مِ وَرَسْمٌ بِنُصْرَةِ الْمَجْدِ حَالِي

### (٢٨) أنفاس الخزامى

أَيُّ عِطْرِ فَاقَ أَنْفَاسِ الْخَزَامِي  
بَنْتُ مِصْرَ فِي حَيَاءِ زَهْرَةٍ  
لَا يَرَاهَا غَيْرُ مَنْ كَانَتْ لَهُ  
تَجَذَّبُ النَّحْلَ إِلَى أَكْوَابِهَا  
تَتَوَارَى عَنْ عِيُونَ لَا تَرَى  
أَيُّهَا الْأَنْفَاسُ طِيبِي وَأَنْشُرِي  
كَمْ وَقَفْنَا فِي مَجَالِي نَشْوَةٍ  
لَمْ نُقْبَلْ غَيْرَ مَعْنَى حَائِمِ

فِي حَنَانٍ يَمْلَأُ الرُّوحَ سَلَامًا  
وَخَشُوعًا وَسَلَامًا وَابْتِسَامًا  
رُوحَهَا أَوْ مَنْ يَحَاكِيهَا غَرَامًا  
وَهِيَ سَكْرَى تَرَشُّفُ الشَّهْدِ الْمُدَامَا  
بِقَّةَ الْحُسْنِ وَأُخْرَى تَتَعَامَى  
خَطَرَاتِ الْحُبِّ حَتَّى يَتَسَامَى  
عِنْدَ مَرَاكٍ فُتُونًا وَاحْتِشَامًا  
حَوْلَنَا مِنْكَ عَشِقْنَاهُ دَوَامًا!

### (٢٩) هجر الكريم (إلى أستاذي خليل مطران)

سَلِ النَّجْمَ كَمْ أَوْدَعْتَهُ الْحُبَّ مِنْ فَنِّي  
وَرُبَّ جَمَادٍ صَادِقِ الذِّكْرِ مُفْصِحِ

فَإِنَّ لَهُ مِنْ صِحَّةِ الْقَوْلِ مَا يُغْنِي!  
وَأَيُّ حَيَاةٍ لَا تَحُومُ عَلَى أَفْنِ؟

أَرَاقِبُهُ فِي كُلِّ لَيْلٍ وَعِنْدَهَا  
وَأَسْأَلُهُ تَبْلِيغَ عُنْبِي لِهَاجِرِي  
وَأَحْسَبُهُ أَشْجَاكَ فِي وَصْفِ حَالَتِي  
أَمِيرَ الْقَوَافِي! أَنْتَ فِي اللَّبِّ مَائِلٌ  
تَوَخَّيْتُ دَارًا شِئْتُ أَنْ نُلْتَقِيَ بِهَا  
فَلَمَّا رَأَيْتُ الْوَعْدَ آمَالَ حَالِمٍ  
نَثَرْتُ بِهَا مِنْ أَدْمَعِي كُلَّ دَرَّةٍ  
أَبْتُ لَهُ مَا يَشْتَكِي السُّهُدُ مِنْ جَفْنِي  
لِعِلْمِي أَنَّ الْحُسْنَ أَطْوَعُ لِلْحُسْنِ  
وَهَلْ كَانَ هَذَا مَا يُخَفِّفُ مِنْ حُزْنِي؟  
وَلَيْسَ بِيَانِي عَنْ سَنَاكَ بِمُسْتَعْنٍ  
لِقَاءِ الْوَفَا بِالْمَجْدِ وَالْخُذْنِ بِالْخُذْنِ  
وَأَسْلَمَنِي طُولُ التَّرَقُّبِ لِلْوَهْنِ  
وَكَلَّفَتْهَا تَبْلِيغَ صِدْقِ الْهُوَى عَنِّي!

### (٣٠) عالم وعالم

أرسل الأستاذ الجليل حامل لواء النهضة الأدبية خليل مطران إلى صاحب هذا الديوان قصيدة ودية رائعة مطلعها:

يَا ابْنَ أَخِي بَشَّرْتَنِي مَرَّةً  
مَا دُمْتَ فِي خَيْرٍ وَفِي صِحَّةٍ  
بِمُلْتَقَى السَّبَبِ وَلَمْ تَحْضُرِ  
فَأَنْسَ الَّذِي تَنْسَاهُ أَوْ فَادُكُرِ

وَمِنْهَا:

تَحْكِي سَهِيلاً قَطْرَةً مِنْ دَمٍ  
كَلَاهِمَا فِي نَوْعِهِ عَالَمٌ  
وَتَكْفُو الذَّرَّةُ لِلْمُسْتَرِي  
أَدَقُّهُ يَدِهِسُ كَالْأَكْبَرِ!

فأرسل إليه صاحب الديوان الرد الآتي:

يَا سَيِّدِي الْعَمَّ وَيَا مَنْ لَهُ  
مَا كُنْتُ إِلَّا بَضْعَةً مِنْ هُدَى  
هَيْهَاتَ أَنْ أَنْسَى مَوَاعِيدَنَا  
أَدِينُ بِالْحُلُوِّ وَيَا الْمُزْهَرَ  
أَهْدَيْتَهُ أَنْتَ إِلَى مَعْشَرِي  
لَكِنْ تَخَالَفْنَا فَلَمْ نَحْضُرِ! <sup>٨</sup>

<sup>٨</sup> يريد أخطأ كلانا في تعيين الموعد فلم نتلاق.

وَكَيْفَ أَنْسَاهَا وَأَنْتَ الَّذِي      لَوْلَاهُ لَمْ أَزْهَرْ وَلَمْ أَتَمِرْ؟  
مَقَالَةُ الصِّدْقِ، وَحَسْبِي غَنَى      مَقَالَةُ الصِّدْقِ وَحَبِّي السَّرِي

\* \* \*

يَا شَاعِرَ الْعَصْرِ وَيَا مُرْشِدِي      وَرَافِعَ الْخُلُقِ وَيَا مُظْهِرِي  
نَصَائِحِ الْوُدِّ الَّتِي سَطَّرْتَ      فِي شَعْرِكَ الْحَيِّ جَنَى أُسْطَرِي  
تَفَتَّرُ بِالْإِلْهَامِ وَضَاءَةً      كَعَهْدِكَ الدَّائِمِ بِالْمُبْهِرِ  
حَبَّبْتَ لِي الطَّبَّ كَأَنِّي بِهِ      كَفَرْتُ بِالْدُّنْيَا وَلَمْ أَكْفُرْ  
أَسْتَضِعُّ الْعَالَمَ مِنْ عِزَّةِ      بِالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ وَبِالْمُنْكَرِ!  
كَأَنَّمَا الْعُرْفُ وَإِنْكَارُهُ      سِيَانٌ فِي الرُّوحِ وَفِي الْجَوْهَرِ  
مَا زِلْتُ بِالْبَابِ وَلِكِنِّي      كَالهَارِبِ التَّائِهِ فِي عَسْكَرِ!  
وَالْمَجْهَرُ الكَاشِفُ لَا يَنْتَنِي      يُشَوِّقُنِي وَهَمًّا وَلَا يَمْتَرِي  
أَسْتَنْبِطُ الْأَحْيَاءَ فِي نُورِهِ      كَأَنِّي مُسْتَنْبِطُ عُنْصُرِي!  
كَأَنَّنِي الْخَلْقُ فِي دِقَّةِ      وَالْعَالَمُ الْأَكْبَرُ فِي مُجْهَرِي<sup>٩</sup>  
كَأَنَّمَا الْإِنْسَانُ فِي قَبْضَتِي      مُسْتَحْدَثًا حَيًّا لَدَى مَخْبَرِي!<sup>١٠</sup>  
أَوْ أَنَّمَا تَشْرِيحُهُ نَفْحَةً      تُحْيِيهِ بِالْعِلْمِ وَإِنْ يُقْبَرِ!

\* \* \*

مَا أَعْجَبَ الطَّبَّ وَالْإِلْهَامَهُ      لِلشَّاعِرِ النَّائِرِ وَالْمُجْتَرِي  
أَقْصَى الْخَيَالَاتِ لِأَشْعَارِهِ      لَا شَيْءَ جَنَبَ الْعِلْمِ فِي الْمَخْبَرِ!

<sup>٩</sup> مرادف الميكروسكوب.

<sup>١٠</sup> مجهري: ميكروسكوبي.

<sup>١١</sup> المخبر: المعمل العلمي الاختباري.

(٣١) لوعة الخريف

إلى أستاذي خليل مطران

شِعْرِي لَدَى الْعَمِّ الْخَلِيْبِ  
 صِفْ لَوْعَتِي حِينَ الْخَرِيْبِ  
 حِينَ الصَّبَا رَهْنُ الذُّبُو  
 مُتَقَطِّعًا مُتَوَجِّعًا  
 حُلْمٌ يَرُوِيهِ الصَّبَا  
 لَهْفِي عَلَى الْحُلْمِ الْجَمِيْدِ  
 وَعَلَى الْهُوَى بَيْنَ الْمُعَا  
 وَعَلَى الصَّبَا يذوي عَقَا  
 لِ صِفِ الْهُوَى فِي مَدْمَعِي  
 فَ يَبْنُ فِي أَلْمِ مَعِي  
 لِ وَحِينَ قَلْبِي لَا يَعِي  
 فِي حُلْمِهِ الْمُتَقَطِّعِ  
 فَيَجْفُ عِنْدَ الْمَنْبَعِ  
 لِ مُضِيْعًا وَمُضِيْعِي!  
 نِدِ وَالْمُكَابِرِ وَالِدَّعِي!  
 بَا لِغَرَامِ الْمُبْدِعِ!

\*\*\*

شِعْرِي لَدَى الْعَمِّ الْخَلِيْبِ  
 عَبَّرْ لَهُ عَنْ كُلِّ آ  
 وَعُدْ الطِّيُوفَ مِنَ الْمَحْدِ  
 عُدْ بَيْنَ أَمَالِ الرَّبِيْبِ  
 فَهُوَ الْكَفِيْلُ بِحُبِّهِ  
 أَدْبِي يَدِيْنُ إِلَيْـ  
 وَقَوَامُ تَفْكِيرِي الْجَدِيْدِ  
 وَلَدَيْهِ أَغْتَنِمُ الرَّبِيْدِ  
 يَطْوِي الْفُصُولَ بِسُخْرِهِ  
 وَإِذَا الرَّبِيْعُ أَضْمُهُ  
 وَإِذَا الْحَبِيْبُ كَأَنَّهُ  
 سَخِرُ مِنَ الْعَهْدِ الْقَدِيْدِ  
 يُحْيِي الْمَوَاتَ مِنَ الْقُلُوْبِ  
 لِ عَزَاءَ قَلْبِي الْمَوْجِعِ  
 لِأَمِي وَوَجْدِي وَأَسْمَعِ  
 بَةِ هَامَسًا فِي مَسْمَعِي  
 عِ مِنَ الْحَنَانِ الْمُمْرِعِ  
 طَبًّا لِحُرْقَةِ أَضْلُعِي  
 هِ بَلْ قَلْبِي وَعَايُهُ مَطْمَعِي  
 دِ وَوَثْبَتِي وَتَدْفُعِي  
 عِ بِوَحْشَتِي وَتَفْجُعِي  
 فَإِذَا الْخَرِيْفُ مُوَدَّعِي  
 فِي نَشْوَةِ الْمُسْتَمْتِعِ  
 مَا غَابَ أَوْ هُوَ مُبْدِعِي  
 مِ بِقَنَّتِهِ الْمُنْتَرَفِعِ  
 بِ بِلَذَّةِ الْمُنْتَبِرِّعِ

\*\*\*

شَتَّانَ بَيْنَ هَوَى يَجُودِ      دُ وَبَيْنَ حُبِّ يَدْعِي  
شَتَّانَ بَيْنَ هَوَى بِهِ      مَجْدِي وَآخِرَ مَضْرَعِي!

رد أستاذي مطران

أَزْكَى تَحِيَّاتِ الْفُؤَا      دِ إِلَى الزَّكِيِّ الْأَزْوَاعِ  
أَهْدَى إِلَيَّ قَصِيدَةَ      كَخَرِيدَةِ لَمْ تُفْرَعِ  
عَمَرْتُ مَكَانَ الْأُنْسِ      عِنْدِي مِنْ فُؤَادٍ بَلْقَعِ  
حَسَنَاءُ بَارِعَةُ الْمَعَا      نِي فِي نِظَامِ أَبْرَعِ  
تَجَلَّى فَتَحَلَّى أَوْ تَغَيَّرَ      بْ فَحَلَّيْهَا فِي الْمُسْمَعِ  
مَنْ لِي بِمُنْصَرَمِ الشَّبَا      بِ وَفِكْرِي الْمُتَوَزَّعِ  
فَأَجِيدُ فِي رَدِّ الثَّنَا      ءِ عَلَى الْأَخِ الْمُتَبَرِّعِ  
قَصَّرْتُ فِي شَأْوِ الْبَلَا      غَةً عَنِ تَمَائِدِي مَطْمَعِي  
أَهْلًا بِحَامِلَةِ الْكِتَا      بِ أَمِينَةَ الْمُسْتَوْدَعِ  
أَهْلًا بِنَاقِلَةِ الْبَيْدِ      حِ مِنْ الطَّرَازِ الْأَبْدَعِ  
أَهْلًا بِصَادِحَةِ شَجْتِ      قَلْبِي وَأَجْرَتْ مَدْمَعِي  
بَنَيْتُ حِكَايَةَ وَجْدِهِ      بِأَنْبِيئِهَا الْمُتَقَطِّعِ  
وَشَدْتُ عَلَى تَوْقِيعِ سِرِّ      بِ مِنْ حَمَامِ سَجِّعِ  
نَعْمَ الْمَلَائِكِ بَيْنَ مَبْدُودِ      ءِ وَبَيْنَ مَرْجَعِ  
أَحْسَنْتَ تَأْدِيَةَ الْبَلَا      غِ عَنِ الصَّفِيِّ الْأَلْمَعِي  
كَوْفَائِهِ لِيَكُنْ وَفَا      ءِ الْخَدْنِ غَيْرَ مُصْنَعِ  
وَكُودِهِ فَلِيُشْرَعَ الـ      وَودُ النَّقِيِّ الْمَشْرَعِ  
وَكَعْرَمِهِ فِي الْمَجْدِ فَلـ      يَكُ عَزْمٌ كُلُّ سَمِيدِ  
لَا خَلْقَ أَنْزَعُ لِلْعُلَى      بِجَمَالِ هَذَا الْمَنْزَعِ



(٣٢) المتصرف

كُتِبَتْ عَلَى صُورَةٍ أَهْدَاهَا الشَّاعِرُ إِلَى أَحَدِ أَوْفِيَائِهِ

الْقَلْبُ لَا يَرْجُو دُنُوَ مَالِهِ  
كُنْ كَيْفَ شِئْتَ مَقْدَرًا لِحَالِهِ  
لَوْ رُمْتَ أَسْعَدْتَ الْأَسِيرَ بِأَسْرِهِ  
مَا دُمْتَ أَنْتَ مَصْرَفًا فِي حَالِهِ  
وَنَعِيمٌ مُهَجَّتِهِ وَحَظٌّ «حَيَالِهِ»  
أَوْ شِئْتَ أَذَلَّتْ الْعَزِيزَ بِآلِهِ

(٣٣) الاستشفاء

دَعِ الرَّجِيلَ لِدَارِ الْحُبِّ وَالْغَيْدِ  
فَمَدَّمَعِ الْعَيْنِ مِنْ حُسْنِ تَقَرُّ بِهِ  
يَحْلُو الْهَجِيرُ إِذَا صَحَّ الْفُؤَادُ بِهِ  
وَاصْبِرْ عَلَى الْقَيْظِ فِي قَاسٍ مِنَ الْبَيْدِ  
وَلَذَّةِ السَّمْعِ فِي أَسْرِ الْأَعَارِيدِ  
عَنِ النَّسِيمِ بِتَعْذِيبٍ وَتَسْهِيدِ

(٣٤) على قبر الشهيد

وَدِدْتُكَ مَشْنُوقًا وَزُرْتُكَ مَقْبَرًا  
وَقَفْتُ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَقَفَّةَ عَابِدِ  
وَطَاطَأْتُ رَأْسًا لَمْ تَشَأْ خَفْضَةً لَهُ  
إِذَا مِتُّ مَحْرُومًا مَدَى النُّطْقِ بِالْهُدَى  
فَإِنِّي عَلَى الْإِحْجَامِ أَقْرَبُ لِلْكَفْرِ!  
إِذَا مَسَّنِي مِنْ خَشْيَةِ الظُّلْمِ هَزَّةٌ

(٣٥) وَطَنِي! وَطَنِي!

وَطَنِي! وَطَنِي! يَا ابْنَ الزَّمَنِ!  
أَوْلَمْ تَدِرْ سِرَّ الدَّهْرِ؟  
هَيْهَاتَ يَسُودُ بَاغٌ وَحَسُودٌ  
فِي مِ الأَحْزَابِ وَالْخَلْفُ خَرَابٌ؟  
حُبٌّ وَوَنَاءٌ سِرُّ الأَيَّامِ  
فَإِذَا ذَهَبَا تَرَكَ العَطَبَا!

(٣٦) الطائر الجديد

(لمناسبة اجتياز بليريو خليج المانش بنجاح باهر وانتعاش حركة الطيران)

أَيُّهَا الإِنْسَانُ يَا ابْنَ الأَرْضِ فِيمَا  
لَكَ أَنْ تَسْمُوَ مَا شِئْتَ وَلَكِنْ  
قَبْلَ أَنْ تَمْضِيَ لَهُوَ وَتَطِيرُ  
كَمْ خَرَابٍ شَامِلٍ فِيهَا نَرَاهُ  
عَمَّرَ الأَرْضَ تَكُنْ فِيهَا آلُهُ  
عَمَّرَ الأَرْضَ وَعِشْ عَيْشَ أَحِيكَ  
تُمْ طِرْ مَا شِئْتَ وَتَغْزُ الجَوَاءُ  
تَشْتَهِي أَنْ تَعْتَلِي هَذَا السَدِيمَا  
أَصْلِحِ الأَرْضَ تَجِدْ فِيهَا المَفَاتِنِ  
عَمَّرَ الأَرْضَ وَلَا تَنْسَ المَسِيرُ  
أَنْتَ تُبْقِيهِ عَلَى غَيْرِ انْتِبَاهِ  
إِنَّ هَذَا وَحْدَهُ مَجْدٌ وَجَاهُ  
لَيْسَ فِي الإِنْسَانِ عَبْدٌ وَمَلِيكَ  
لَيْسَ لِالأَحْلَامِ حَدٌّ وَأَنْتِهَاءُ!

(٣٧) مسرح الليل

مَسْرَحَ اللَّيْلِ! أَيُّ مَلْهُى عَجِيبِ  
كَمْ مَرَاءٍ خَلَقْتَهَا وَهِيَ شَتَّى  
أَنْتَ مَلَقَى العُبَادِ وَالطَّهْرِ بَيْنَا  
أَنْتَ تَبْدُو لِلشَّاعِرِ الفَنَّانِ؟  
مَنْ مَدِيدِ التَّنَاقُضِ الفَنَّانِ  
أَنْتَ مَجَلَى التَّهْتِكِ المُتَفَانِي

كُلُّ رَأٍ يَرَى الَّذِي يَشْتَهِيهِ  
وَالنُّجُومُ الَّتِي تُطَلُّ عَلَيْنَا  
بَيْنَ حُبِّ لَنَا كَأَمَّ رَعَتْنَا  
حَبَسَتْ دَمْعَهَا فَإِنْ بَدَلْتُهُ  
شُهْبٌ تَسْتَجِيلُ مِنْ دَمْعِهَا الصَّا  
فَكَأَنَّ الْأَجْوَاءَ لِلْأَرْضِ آذَتْ  
وَيَذُوقُ الَّذِي يَرَى مِنْ مَعَانِي  
فِي حَنَانٍ وَرَعِشَةٍ وَأَفْتَتَانٍ  
وَالْتِيَاعِ كَخَفَقِ قَلْبِ الْجَبَانِ  
فَشَابِيبُ دَمْعِهَا النُّورَانِي  
فِي إِلَيَّ حُرْقَةً إِلَيَّ صَوَانٍ  
هَهَا فَحَاكَتْ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ!

### (٣٨) نبع الصبابة

هَذِي الْأَنَامِلُ مِنْ أَبَاحِ لَوْعِهَا  
لَوْلَاهُمَا مَا كُنْتُ أَفْهَمُ وَقَعَهَا  
جُودِي بِأَنْغَامِ الْحَيَاةِ وَجَدِّدِي  
لُغَةَ الْعَوَاطِفِ تُسْتَسَاغُ كَأَنَّهَا  
أَصْغَيْتُ كَالطِّفْلِ الرَّضِيعِ لِأُمِّهِ  
وَنَعِمْتُ قُرْبِكَ فِي صَلَاةٍ حَرَّةٍ  
قَلْبِي سِوَى عَيْنَيْكَ يَا حَسَنَائِي؟  
سِحْرًا يُمِيتُ كَمَا يُعِيدُ رَجَائِي  
مَا شَتَّتِ إِلَهَامًا عَلَى إِلَهَامِ  
نَبْعِ الصَّبَابَةِ فَاضٍ بِالْأَنْغَامِ  
وَرَشَفْتُ مِنْكَ بِمَسْمَعِي حَيَاتِي  
لِلْفَنِّ لَمْ تُقَرَّنْ بِأَيِّ صَلَاةٍ!

### (٣٩) لِمَ يَحْجُبُونَكَ؟

يَا «رَيْنَ» دُنْيَايَ الَّتِي مَا نَالَني  
لِمَ يَحْجُبُونَكَ؟ هَلْ أَتَمْتُ مَا  
هَلْ لِي سِوَى دِينِ الطَّهَارَةِ مِلَّةً  
فَإِذَا حُجِبْتُ فَمَنْ أَحْصَى بِمُهْجَتِي؟  
مِنْهَا سِوَى قَلْقِي عَلَى حِرْمَانِي؟  
أَعْطَيْتُ حُسْنِكَ مِنْ جَمَالِ بَيَانِي  
أَوْ لِي سِوَاكَ حِمَايَ أَوْ دِيَانِي؟  
وَلِمَنْ أَعِيشُ؟ وَمَنْ لَهُ وَجْدَانِي؟

(٤٠) عبادات

مَا لِعَيْنِي كُلَّمَا أَلَقَاكَ بِالْفَرْحَةِ تَدْمَعُ؟  
 أَهِيَ لِي الْفَرْحَةُ أَمْ حَشِيَّةُ حُلْمٍ يَتَّصِدَعُ؟  
 بِي رَجَاءٌ لَيْسَ يَخْبُو وَرَجَاءٌ لَيْسَ يَلْمَعُ  
 وَأَنَا كَالْتَأْتِيهِ الْعَانِي إِلَى الْأَوْهَامِ أَفْرَعُ  
 هَاكَ قَلْبِي يَا حَيَاتِي! نَبِيئِهِ كَيْفَ يَصْنَعُ!  
 هُوَ فِي الْقُرْبِ بَعِيدٌ عَنْكَ بِهِمْ ثُمَّ يَجْرَعُ  
 آهَ كَمْ يَجْنِي حَيَاتِي! آهَ مِنْ شَوْقٍ مُصْنَعُ!  
 كَمْ تَلَأَشْتُ قُبْلَاتِي فِي غَرَامٍ يَنْوَرَعُ!  
 قُبْلَاتِي فِي امْتِنَاعٍ هُوَ بَعَثَ لِي وَمَصْرَعُ  
 وَحَيَاءٌ هُوَ تَسْلِيمِي بِعَقْلِ لَيْسَ يَخْضَعُ  
 وَعِبَادَاتُ تَنَاهَتْ وَأَبَتْ لِي كُلَّ مَطْمَعُ!

(٤١) موسيقى الوجود

(نظمها صاحب الديوان متأثراً بقصيدة للشاعر جبرائيل سيتون)

حَدَّثُونِي عَنِ الْوُجُودِ الْمَعْنِيِّ:      كُلُّ مَا فِيهِ صَادِحٌ يَنْعَنِي  
 مِنْ جَمَادٍ وَمِنْ نَبَاتٍ وَأَحْيَا      ءَ، فَلَيْسَ الْغِنَاءُ مِنْهُنَّ يَفْنَى  
 وَعَجِيبٌ إِذَا تَنَاءَيْتَ عَنِّي      لَمْ أَجِدْ لِلْغِنَاءِ فِيهِنَّ مَعْنَى  
 وَإِذَا مَا ظَفَرْتُ مِنْكَ بِأَنْسِي      صَارَ هَذَا الْوُجُودُ لَحْنًا وَفَنًا!

(٤٢) بَاقَةٌ أَنْعَامٍ

إِذَا اسْتَمَعْتُ إِلَيْكَ  
كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ  
أُضْغِي إِلَيَّ هَذِهِ الْأَلْحَانَ زَاهِيَةً  
فَكُلُّ لَحْنٍ لَهُ لَوْنٌ يُضِيءُ بِهِ  
وَكُلُّ لَحْنٍ لَهُ عِطْرٌ يَفُوحُ بِهِ  
وَأَنْتَ كَوْنِي، وَكَوْنِي فِي حَقِيقَتِهِ  
إِذَا اسْتَمَعْتُ إِلَيْكَ  
كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ  
عَيْنِي بِمَجْلَى رَبِّعِكَ  
فُتِنْتُ مِنْ تَوْقِيْعِكَ  
عَيْنِي بِمَجْلَى رَبِّعِكَ  
كَأَنَّهَا نَحْبُ الْأَزْهَارِ لِلْعَيْنِ  
وَجَمَعَهَا بَاقَةٌ مِنْ زَهْرِكَ الْفَنِيِّ  
وَإِنْ تَخَيَّلَهُ غَيْرِي مِنَ الظَّنِّ  
جَمُّ الْمَعَانِي الَّتِي غَابَتْ عَنِ الْكَوْنِ  
فُتِنْتُ مِنْ تَوْقِيْعِكَ  
عَيْنِي بِمَجْلَى رَبِّعِكَ

(٤٣) الإكسير

هُوَ سَاعَةٌ الدَّهْرِ يَأْبَى مَنَحَهَا  
قَدْ عُدْتُ يَا أَمَلِي إِلَيْكَ فَجَدِّدِي  
الْقَاكَ لِقِيَا خَاشِعٍ مُتَعَبِّدٍ  
فَيَصِدُّنِي هَذَا الْخُشُوعُ كَأَنِّي  
ضَيِّعْتُ أَحْلَامِي وَسَنِي هَكَذَا  
أَنَا لَا الْوَمَكُ يَا حَيَاتِي بَلْ أَرَى  
فَأَنَا الْأَمِينُ عَلَيْكَ غَيْرُ مُحَاسِبٍ  
فَإِذَا لَحَطْتُكَ كَالْغَرِيبِ فَإِنَّمَا  
هَذَا هُوَ الْأُسْبُوعُ مَرَّ وَهَذَا أَنَا  
مُتَنَاولًا فِي الْوَهْمِ كَأَسِّ رَحِيقِهِ  
إِلَّا بِتَوْقِيْعِيَّتِ لَهُ وَقِيُودِ  
عُمْرِي بِنَفْحَةِ رُوحِكَ الْمَعْبُودِ  
وَالْقَلْبُ يَخْفَقُ لِلْعِنَاقِ سَوْوَلًا  
أَجِدُ الْعِبَادَةَ أَنْ أَعِيشَ خَجُولًا!  
فِي الشَّوْقِ وَالتَّعْذِيبِ وَالْحِرْمَانِ  
حَظِّي كَحَظِّ الْحَارِسِ الْبُسْتَانِيِّ  
إِلَّا مُحَاسَبَةَ الضَّمِيرِ الْقَاسِيِ  
أَنَا وَحَدِي الْقُرْبَانُ دُونَ النَّاسِ  
قَدْ عُدْتُ فَرَحَانًا إِلَى إِكْسِيرِي  
مَنْ صَمِنَا الْمَعْنِي عَنِ التَّعْبِيرِ!

(٤٤) الخالق الفنان

تَبَارَكَ رَبِّي مُبَدِّعًا وَمُصَوِّرًا  
يَرَاهَا الْفَتَى لَكِنْ كَأَنَّ الَّذِي يَرَى  
وَمَا عَظَّمَ الْخَلْقَ إِلَّا احْتِجَابُهُ  
وَمَا شَاقَنِي فِي الْكُونِ إِلَّا حَفِيئُهُ  
يَعَافُ نُهَى الْفَنَانِ إِعْلَانُ دَاتِهِ  
كَذَلِكَ خَلَقَ الْوُجُودَ فَإِنَّهُ  
فَهَذَا هُوَ الْفَنُّ الْإِلَهِيُّ لِلَّذِي  
وَهَذَا هُوَ الْمَجْلَى الْعَجِيبُ لِمُبْصِرٍ  
لَقَدْ خَلَقَ الْآيَاتِ كَالسَّحْرِ لِلْوَرَى  
خَيَالٌ وَخَلْفَ الْكُونِ كَوْنٌ تَسْتَرًا  
فَسُبْحَانَهُ يَبْدُو وَيَخْفَى مَكْرَرًا  
فَإِنَّ وَرَاءَ الْكُونِ عَقْلًا مُدَبَّرًا  
وَيُعْلِنُ عَنْهُ الْفَنُّ أضعَافَ مَا يَرَى  
تَحَجَّبَ وَاسْتَهْوَى بِهِ عَقْلٌ مَنْ دَرَى  
يَرَى الْفَنَّ وَالْفَنَانَ فِي النَّجْمِ وَالنَّوَى  
يَرَى الْخَالِقَ الْفَنَانَ عَيْنًا وَمُضْمَرًا

\* \* \*

وَكَوْنَتْ أَنْتِ الْحُبُّ لِي عَالَمًا كَمَا  
تَحَجَّبَتْ كَالْخَلْقِ إِذْ بَاعَدَ الْوَرَى!

(٤٥) بنات الخريف

هَلْمِي! هَلْمِي! بَنَاتِ الْخَرِيفِ  
وَطُوفِي وَطُوفِي بِهَذَا الْحَفِيفِ!  
نَرَاكِ بِأَوْهَامِنَا جَائِلَةً  
كَبَاحِثَةٍ عَنْ تُرَاثِ فَقِيدِ  
وَقَدْ حَرَمْتُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عِيدِ  
فَتَمْضِي بِلَهْفَتِهَا سَائِلَةً!

\* \* \*

نَرَاكِ تَطُوفِينَ وَلَهَى شَرِيدَهُ  
تَهْدِينَ حَتَّى الْغُصُونِ الْوَجِيدَهُ  
وَتَذْرِينَ حَتَّى الرِّيَّاحِ الَّتِي

تَظَنِّينَ فِيهَا حَفَايَا الْجَمَالِ  
وَقَدْ حَجَبَتْهَا أَيَادِي اللَّيَالِ  
فَهَلْ تَنْتَهِينِ إِلَى غَايَةِ؟

(٤٦) الساعة

نَمْنَا جَمِيعًا وَأَنْتِ يَفْظَانَهُ  
بَلْ كُنَّا فِيهِ رُوحُ غَفْلَتِهِ  
كَمْ دَقَّةٍ مِنْكَ جَدُّ مُنْذِرَةٍ  
وَقَدْ غَفَلْنَا وَلَسْتَ غَفْلَانَهُ  
كَفَيْلُ سَوْفٍ يَعَافُ إِنْسَانَهُ  
فَمَا انْتَفَعْنَا وَدُمْتَ لَهْفَانَهُ!

(٤٧) الوسواس

هَلْ فِي الْهَوَاءِ مِنَ الْحَدِيثِ مُحَجَّبُ  
مَا لِي أَحْسُ بِهَاتِفٍ وَبِهَاتِفٍ  
مُلَى الْفُضَاءِ بِهَا وَكَمْ فِي طَيِّهَا  
إِلَّا عَنِ الْفَنَانِ بَيْنَ النَّاسِ؟  
وَبِعَوَالِمِ شَتَى مِنَ الْإِحْسَاسِ؟  
صُورٌ مِنَ الْمَاضِي الْعَزِيزِ الْفَانِي  
بِالْخُلْدِ بَيْنَ مَشَاعِرِ الْإِنْسَانِ!  
ظَفَرَ الْوَرَى  
فَكَأَنَّهَا كُلُّ الَّذِي ظَفَرَ الْوَرَى

(٤٨) الطائر الرقيب

رَقِيبٌ وَلَكِنْ يُغْنِي لَنَا  
لَعَلَّ الرَّبِيعَ وَقَدْ فَاتَنَا  
نُتَابِعُهُ فِي حُبُورِ الصَّبَا  
فَيَا مَرْحَبًا ثُمَّ يَا مَرْحَبًا  
وَيَا طَائِرِي أَنْتِ يَا طَائِرِي  
وَيُعْطِي الْحَدِيقَةَ مَعْنَى الْغِنَى  
أَهَابَ بِهِ لِإِيرِيهِ لَنَا!  
وَنُضْغِي إِلَى الشَّدْوِ مُسْتَعْدِبًا  
بِهَذَا الرَّقِيبِ وَمَا حَبَبًا!  
بَسَمْتَ إِلَى رُوحِي الشَّاعِرِ

وَأَصْغَيْتِ لِلشَّاعِرِ الطَّائِرِ  
 إِذْ لَعَرَفْتِ عَرَامِي الدَّفِينِ  
 وَحُبِّي الَّذِي مِثْلَ حَيِّ الغُصُونِ  
 فَهَلَّا أَصْحَتِ إِلَى خَاطِرِي؟  
 وَمَا لَجَّ بِي مِنْ جَوَى أَوْ حَنِينِ  
 تَفَرَّعَ، بَلْ مِثْلَ حَيِّ الفُنُونِ!

### (٤٩) وحي المطر

أَنَا ظَامِيٌّ وَالْكَلُّ حَوْلِي ظَامِيٌّ  
 هَذِي الغُصُونُ تَنَاوَلَتْ مَا خَصَّهَا  
 تَتَسَاقَطُ القَطْرَاتُ مِنْ يَدِ زَهْرَةٍ  
 وَأَنَا الوَحِيدُ فَأَيْنَ أَيْنَ حَبِيبَتِي  
 هَلَّا بَعَثْتِ إِلَى دَفِينِ شُعُورِهَا  
 فَلَعَلَّهَا تَأْتِي وَتَنْتَرُ عَطْفَهَا  
 فَتَقَطِّرِي يَا سُحْبُ كَيْفَ حَنَنْتِ  
 وَلَبِثْتُ فِي ظَمَمِي لِوَحْيِكِ أَنْتِ  
 لِيَدِي، لِأُخْرَى، وَالْجَمِيعِ سَكَارَى  
 حَتَّى تَرُدَّ جَوَى وَتُنْطَفِئِي نَارًا؟  
 بِرِسَالَةِ الحُبِّ الوَفِيِّ البَاكِي  
 كَالْقَطْرِ فَوْقَ الزَّهْرِ وَالْأَشْوَاكِ!

### (٥٠) القطة اليتيمة

جَسْتِ قُرْبِي كَأَنَّ قُرْبِي  
 وَكَمْ تَأَلَّمْتُ فِي حُنُويِ  
 فَقَدْتِ أُمًّا وَمَا فَقَدْنَا  
 كَأَنَّي نَاكِلُ شَبَابِي  
 أَحْبَبْتِ فِي وَحْدَتِي عَزَاءً  
 قَدْ أَسْرَفَ الحُسْنَ كِبْرِيَاءً  
 فَلْتَعْنِمِي أَنْتِ مِنْ حَنَانِي  
 فَالْحُبُّ جَانٍ وَأَيُّ جَانٍ  
 عَزَاءً إِحْسَاسِكِ اليَتِيمِ  
 عَلَيَّ فِي صَمْتِكِ الأَلِيمِ  
 لَكِنَّ فِي عَزَلَتِي افْتِقَادًا!  
 وَسَائِدُ الصَّمْتِ مِنْ حَدَادٍ  
 مَدْ لَمْ أَنْلُهُ مِنَ الجَمَالِ  
 أَوْ بَرُّهُ يُشْبِهُ المَحَالِ  
 مَا شِئْتِ يَا طِفْلَةَ العَرَامِ  
 وَالحُبُّ كَمْ يَتَمَّ الأَنَامِ





## دراسات أدبية

### (١) شاعرية أبي شادي

هزت مشاهد الفجر من القدم عبقرية الشعراء، فتغنّى جوت الشاعر الألماني بلون الفجر الأرجواني، وذكر أثره الجليل على شاعريته في رواية فوست، وأرسل الشاعر الإنجليزي كولريديج نشيدًا ناجى به مظاهر الطبيعة قبل طلوع الشمس في وادي شاموني. وأثّر جلال الفجر في أبي شادي وهو في صباه، فوصف أنداء الفجر بأنها صيغت في حنان ورقة من دموع النجوم ومن سهر العاشق وأن عمرها لحظات نقضيها في ثغور الأزهار وفي ألق العشب وفوق الغصون والأشجار:

مِنْ دُمُوعِ النُّجُومِ، مِنْ سَهْرِ العَاشِـ	قِ صِيغَتِ وَمِنْ رَجَاءِ الحَيَاةِ
فِي حَنَانِ وَرِقَّةٍ وَهِيَ لَا تَمُـ	لِكُ مِنْ عُمْرِهَا سِوَى لِحَظَاتِ
فِي ثُغُورِ الأَزْهَارِ، فِي أَلْقِ العُشـ	بِ، وَفَوْقَ الغُصُونِ تَحِيًّا وَتَفْنِي
وَهَبَّتْ حُسْنَهَا الضَّحِيَّةَ لِلشَّمـ	سِ كَأَنَّ الفَنَاءَ لِلشَّمْسِ أَعْنَى!

وليست هذه الأنداء إلا رمزًا لقلب شاعر تأثر بمشهد الفجر الشعري فترقرقت من قلمه أنداء على زهرة الشعر في مملكته المقدسة، فإذا بديوان بكر وَسَمَهُ الشاعر (أنداء الفجر)؛ ديوان تنفس الحب العفيف الصادق وهتف بمرائي الطبيعة الرائعة، ورسم خوالج النفس الحاملة الشاعرة وتأملات الزهد الخفية العميقة، وإذا بنا ننشق عطر الشاعرية فيه ونلمح وميض العبقرية يخطف بالبصر في داجٍ من الظلم.

وعجبُ أي عجب لنزوع هذا الشاعر في سن مبكرة إلى انتقاء عناوين شعرية لدواوينه وقصائده ومقطوعاته انتقاءً فائقاً يتمازج فيه العنصر الشعري بالعنصر الجمالي كما تتمازج أضواء القمر الجميلة بموجات النهر الساحية.

وها نحن نلمس العنصر الشعري في ديوان (أنداء الفجر) في مثل مقطوعته «وحي المطر» التي هتف بها الشاعر في أوائل الشتاء جامعاً فيها بين الطبيعة والحب في نفس واحد، وفي قصيدته «بنات الخريف» يناجي بها روح الخريف مناجاةً شعريةً قويةً، وقصيدة «موسيقى الوجود» يغني فيها بمشاهد الوجود من جماد ونبات. وهذا العنصر الشعري يغمر جميع دواوينه، ونذكر بخاصة ديوان (الينبوع) الذي وعى من القصائد الشاعرة «رعشة الحور» و«الأوراق الميتة» و«الورود الحمراء» و«مصر العازفة» و«الأشعة الصادحة» وغيرها، ونقصد بالعنصر الشعري تلك البيئة التي تنزع بالشاعر إلى المرائي والحوالج وتلف قلبه وحواسه في شبه غيبوبة، وتبتعث شعوره إلى أن يهيم في أودية خفية وزهنة إلى أن يجول في أفاق مجهولة! فأوراق العشب، وأنفاس الزهر، وصمت الكون، وأحزان القمر، وظلال السحب، وأنداء الفجر، وتوفز الطير ... كلها وأشباهاها من مواد الشاعرية، بينما القصر الجديد، والطيارة ذات الأزيز، والخيل الجارية في السباق، والسيارة الناهبة للأرض، والآلة الميكانيكية، والاختراع الحديث، وكل مظهر من مظاهر الحياة الصناعية، قد تكون جميلة أيما جمال، ولكنها لا تبض بشاعرية، ولا تتفتح عن خيال. وما عرف أبو شادي الجمال متجرِّداً عن الشاعرية، ولا ترنم في ديوان من دواوينه بمظاهر الجمال البحتة. اسمع إليه يقول في قصيدته «حياتان»: حياة الطبيعة التي يجد فيها موضوعاته الشعرية، وحياته اليومية التي يتقزز منها، يبث حينه للأولى وشجاه من الثانية ... يقول:

أُمِّي الطَّبِيعَةَ فِي نَجْوَاكِ إِسْعَادِي      وَفِي ابْتِعَادِي أَعَانِي دَهْرِي الْعَادِي  
وَفِي حِمَى إِخْوَتِي مِنْ كُلِّ طَائِرَةٍ      وَكُلُّ نَبْتٍ نَبِيلٍ وَحِيكَ الْهَادِي

وهذا النزوع إلى المواطن الشعرية أكثر من الجمالية ملحوظ في الشعراء الحقيقيين أمثال كولريديج الذي ناجى «البلبل»، ووردزورث الذي هام بالطبيعة، وكيثس الذي أثر الشاعرية على الجمال؛ فتغنى بالزهر وهتف بالطير ولم يهتم بمراى أبعده يد الإنسان. وفيكتور هيجو الذي لم يجاره أحد في تنوع موضوعاته لم يهتم بالجمال المصنوع مثل ما اهتم بالثابتات الشعرية. يقول الفيلسوف الشاب جيبو Guyau في كتابه (فلسفة

الفن والجمال): إن فيكتور هيجو الذي أحاط بكل ضروب الشعر وتحدث في فنونها المنوعة لم يتغنَّ بكنيسة نوتردام دي باري، وكذلك شرب الشاعر الأمريكي الجريء ثورو من الطبيعة فعاش مع الحيوان والطير والزرع وأحب مواطن الشعاعية لذاتها وابتعد عن الناس وعما أبدعته أيديهم من جمال!

وأبلغ العجب أن يند أبو شادي عن هذا النزوع الشعري في قصيدة واحدة من ديوانه هي «عالم وعالم»، فيحدثنا بعظمة وجمال «المجهر» و«المخبر» وآثارهما للعالم، ويحدثنا عن الطب وعجائبه، وهذه الأدوات العلمية الحديثة من المواطن التي ينبو عنها الشعر. يقول:

مَا أَعْجَبَ الطَّبَّ وَالْهَامَهُ      لِلشَّاعِرِ النَّائِرِ وَالْمُجْتَرِي  
أَقْصَى الْخَيَالَاتِ لِأَشْعَارِهِ      لَا شَيْءٌ جَنَّبَ الْعِلْمَ فِي الْمَخْبِرِ!

بيد أنني لا أنكر على الشاعر أن يبرز من مثل هذه الأدوات معاني شعرية، ولكن لا يجعلها هي بالذات موضوع الشعر، كما فعل أبو شادي في قصيدته «الطب الحائر» التي لم يتحدث فيها عن الطب المجرد لا من قرب ولا من بُعد، ولكنه أبرز من ملابسات الطب فلسفة عميقة ذكية. يقول:

مَا كُلُّ بَاسٍ فِي الْجُسُومِ بِصِحَّةٍ      أَوْ كُلُّ وَهْنٍ لِلْجُسُومِ بَدَاءٍ  
وَالْعَيْشُ عَيْشٌ حَقَائِقٌ وَدَقَائِقُ      وَالْمَوْتُ مَوْتُ سَلَامَةٍ الْأَرَاءِ  
نَفْسِي تَحْرُكُهَا الْهُمُومُ إِذَا بَدَتْ      مَكْنُونَةً فِي أَنْفُسِ الضُّعَفَاءِ

وقراءة متعمقة في ديوان (أنداء الفجر) تكشف لنا عن روح شعرية مبكرة لشاعر حقيقي. وتتألف تلك الروح الشعرية من انفعال ينبض نبض القلب في الجسد، وعاطفة تسري سريان النسيم اللطيف في الأفق، وفكر يضيء كشعاع وردي في ليل بهيم!

سرى الانفعال الشعري في قوته في هذا الديوان البكر، ومن آيات ذلك قصائده «عبادات» و«موسيقى الوجود» و«بنات الخريف» وغيرها. اسمع إلى الشاعر يقول في قصيدة «عبادات»:

هَاكَ قَلْبِي يَا حَيَاتِي!      نَبِيئِهِ كَيْفَ يَصْنَعُ!

## أنداء الفجر

هُوَ فِي الْقُرْبِ بَعِيدٌ      عَنْكَ يَهْفُو تَمَّ يَجْزَعُ  
أَهْ كَمْ يَجْنِي حَيَاتِي!      أَهْ مِنْ شَوْقٍ مُضَيِّعٍ!

ويقول الشاعر في قصيدة «بنات الخريف» يخاطب الريح في انفعال وثاب:

هَلُمَّي! هَلُمَّي!      بَنَاتِ الْخَرِيفِ!  
وَطُوفِي وَطُوفِي      بِهِذَا الْحَفِيفِ!

وأبرز ما يبهر العين أن هذا الانفعال الشعري اقترن بعاطفة الحب غناء متنوعاً حتى ليكاد الديوان يتنفس حباً نابضاً، وأبلغ مثال لاقتران الانفعال بالعاطفة نجده في بعض أبيات جاءت في قصيدة «بحر الأمانى»:

أَزَيْنَبُ! إِنْ حَيِّبْتُ فَمَا حَيَاتِي      سِوَاكَ، وَمَا عَدَاهَا الْآنَ فَانِي!  
كَلَانَا فِي الْهُوَى طِفْلٌ، وَلَكِنْ      أَنَا الطُّفْلُ الْغَيْبُ، أَنَا الْمُعَانِي!

وقوله وهو يصرخ صرخات العاطفة الطاهرة في مقطوعته «لَمْ يَحْجُبُونِكَ؟»:

لَمْ يَحْجُبُونَكَ؟ هَلْ أَتَمْتُ بِكُلِّ مَا      أَعْطَيْتُ حُسْنِكَ مِنْ جَمَالِ بَيَانِي؟  
هَلْ لِي سِوَى دَيْنِ الطَّهَارَةِ مِلَّةٌ      أَوْ لِي سِوَاكَ حَمَائِي أَوْ دِيَانِي؟  
فَإِذَا حُجِبْتَ فَمَنْ أَحْصَى بِمُهْجَتِي؟      وَلِمَنْ أَعِيشُ؟ وَمَنْ لَهُ وَجْدَانِي؟

وهذه العاطفة الطاهرة مقرونة بهزة الانفعال النبيل هي من مميزات كل فن خالد. ونجد ذلك بارزاً في موسيقى بيتهوفن وفي شعر ملتون وفي قصائد تينسون وكولريديج، فإذا عبر الشعر عن عاطفة حسية تعبيراً قوياً منفعلاً فإن هذا أدخل في فنية الشعر لا في سموه الخلقى وخلوده. ومن نماذج الشعر الفني الذي لم يصل إلى المرتبة العالية مقطوعة لعباس محمود العقاد دعاها «حسرة متلفة» يمثل بها القبلية في انفعال قوي واشتهاء حسي، يقول:

يَا لَهُ مِنْ فَمٍ      يَا لَهَا مِنْ شَفَه

يَا لِشَهِدِ بِهَا كِدْتُ أَنْ أَرَشِفَهُ  
يَا لِزَهْرٍ بِهَا كِدْتُ أَنْ أَقْطِفَهُ  
حُلُوةٌ وَيُحَيِّهَا! غَضَّةٌ مُرْهَفُهُ  
حَسْرَتِي بَعْدَهَا حَسْرَةٌ مُثْلَفُهُ!

وقد سبقنا شعراء الغرب إلى إبراز قوة انفعالاتهم في بعض قصائدهم الخالدة، ومن هؤلاء الشعراء من دقَّ شعورهم وصفا حتى لتكاد تسمع نبض أعصابهم، ومن هؤلاء نذكر دي موسيه الحساس، وبودلير الهوائي، وشيلي العصبي، وكيثس النابض، وويليام بليك المنفعل، ولعل أغنية الأخير «الوردة المريضة» هي من الشعر العبقري، وقد وصف حالتها في انفعالٍ أليم فذكر أن دودةً مجهولة طارت إليها في الليل على أجنحة الزوبعة الزائرة ودخلت في مخدعها الفارح وبيدٍ خفية قتلتها! وقد استهلها بقوله:

O Rose! Thou art Sick!

وليس من شك في أن أبا شادي تغلب عليه نزعة التفكير والتأمل في شعره، وهذه أظهر ما تكون في دواوينه الجديدة لا في ديوانه البكر. وأخصُّ بالذكر من هذه الدواوين «أطياف الربيع» و«الينبوع» و«أشعة وظلال». وتبدو فيه هذه النزعة التفكيرية من صباه الباكر إلى يومه الحاضر، ومن دلائل تفكيره العميق وتأثره الفني قصيدته «أنفاس الخزامى» وقصيدته «الخالق الفنان». أما قصيدته «أنفاس الخزامى» فهي قصيدة فريدة في طرازها ولم يسبق شاعر من قبل — على ما أظن — إلى التفكير في هذه الزهرة والانتباه إلى وجودها بهذه المعاني، ولعل الذي نبهه إليها اشتغاله بالنحل من عهد الفتوة، وهو بهذا التفكير يحاكي شيلي الذي تنبه إلى صوت «القبرة» وبيرنز الذي تنبه إلى جمال زهرات اللؤلؤ في حقول اسكتلندا، ويحاكي كيتس وكولريديج في مناجاتهما «البلبل» وفيكتور هيجو في وصفه لزهرة المرغريت الوديعه. يقول أبو شادي في مطلع هذه القصيدة الفذة:

أَيُّ عِطْرٍ فَاقَ أَنْفَاسَ الْخُرَامِي فِي حَنَانٍ يَمْلَأُ الرُّوحَ سَلَامًا  
لَا يَرَاهَا غَيْرُ مَنْ كَانَتْ لَهُ رُوحَهَا أَوْ مَنْ يُحَاكِئُهَا غَرَامًا!

تَجْدُبُ النَّحْلَ إِلَى أَكْوَابِهَا وَهِيَ سَكْرَى تَرَشْفُ الشَّهْدَ الْمُدَامَا!

وبودي لو يتم القارئ تلاوتها في الديوان، ليتبين ما فيها من رائع المعاني، وبودي أيضاً لو يرجع القارئ إلى قصيدة «الخالق الفنان» فإن فيها معاني تتطلب التفكير، وفيها شعور بالإيمان الصوفي، وبودي أيضاً لو يرجع القارئ إلى قصيدة «مسرح الليل» فإنه سوف يجد فيها أفكاراً عميقة وخيالات قوية جريئة. وليس من شك في أن بثَّ الفكر الأصيل في الشعر من سمات كبار الشعراء البارزين، وذلك لأن أصالة الشعر لا تأتي إلا بالفكر الواسع، وأصالة التأمل لا تكون إلا بالذكاء لا بالحواس. يقول جيبو «المفكر الحقيقي هو الفنان الحقيقي»، فالشعر عند إمرسون كان أفكاراً، والشعر عند بروننج كان أفكاراً عميقة غامضة تحتاج إلى التروي وتقليب الرأي، والشعر عند كولريديج ينزع إلى التفكير. استمع مثلاً إلى قصيدته «ذكريات الحب» التي تطفر بجمال الفكرة وهو يصرخ إلى حبيبته صرخات العاطفة فيصفها بأنها فكرة وأنها حلم يُذكر في حلم! يقول:

You stood before me like a thought,  
A dream remembered in a dream.  
But When these meek eyes first did seem  
To tell me, love within you wrought,  
O Greta, dear domestic stream.

ولقد خلع أبو شادي على الروح الشعرية رداءً منسجماً مع هذه الروح وملوناً بلونها دون أن يهتم بتجميل القافية ولا بتفخيّمها، وجمع في هذا الديوان على الخصوص إلى صفاء الفكرة لطف الديباجة، وإلى براعة الخيال قوة الأداء، وهذا مما يرضي نزعات المحافظين والمجددين على السواء، وأبرز مثال على هذا الشعر الرصين قصيدته «عيش الحر» وهو خطاب حارٌّ نارِيٌّ موجّه إلى مساوئ الاستعمار، وقد استهلها بقوله:

قَلِيلٌ عَلَى الْأَحْزَانِ مَا أَنْهَدَ مِنْ جِسْمِي إِذَا كَانَ عَيْشُ الْحُرِّ أَشْبَهَ بِالْإِثْمِ

وقصيدته «أنفاس الخزامى» وقد أتينا عليها آنفاً، وقصيدته «الحب والأمل» ومقطوعته «الاستشفاء» التي تلمس فيها الديباجة البدوية الرصينة وقد استهلها بقوله:

دَعِ الرَّحِيلَ لِذَارِ الْحُبِّ وَالْغَيْدِ وَأَصْبِرْ عَلَى الْقَيْظِ فِي قَاسٍ مِنَ الْبَيْدِ!

وقصيدته الرصينة «دمعة على قبر» تلك التي رثى فيها حسناء انتحرت يأساً لفقد عزيز لديها جاء فيها:

حَرَامٌ عَلَى قَلْبِ عَرَفْنَا كَمَالَهُ      يَرُدُّ رَجَاءَ الْحَيِّ لِلتَّرْبِ وَالْقَبْرِ  
حَرَامٌ عَلَى شَمْسٍ أَضَاءَتْ بِطُهرِهَا      تَغِيبُ وَنَحْنُ الْيَوْمَ أَحْوَجُ لِلطُّهْرِ  
حَرَامٌ عَلَى رَوْضٍ نُمُونًا بِمَائِهِ      يَجِفُّ بِلَا ذَنْبٍ جَنِينًا وَلَا عُذْرٍ

ويختتم هذا القصيد بيتب رائع المعنى بارع الأداء يتنفس الإخلاص الصادق، يقول:

جَمَالِكَ فِي نَفْسِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي      وَشَخْصُكَ فِي عَيْنِي مُقِيمٌ وَفِي فِكْرِي!

وهذا الجميع بين صفاء الفكرة وجمال الديباجة وبين براعة الخيال وصدق العاطفة هو سمة كل شعر يشق لنفسه طريق البقاء ويحمل في ذاته عناصر الحياة، وقد امتاز شعر الشعراء النابهين بهذه السمة أمثال المتنبي، وأبي العلاء المعري، وشكسبير، وتينسون، والبارودي، وشوقي، وحافظ، في طائفة من قصائدهم.

وديوان (أنداء الفجر) يضم كثيراً من أمثال هذه القصائد المقفاة الرصينة، ولكن يلاحظ إلى جانب هذه القصائد المقفاة نوع جديد من القافية المزدوجة أو شبه الطليقة تُظهر نزوع الشاعر إلى الطلاقة وإلى التحرر من عبودية القافية الواحدة، وهذه الطلاقة تعطي في كثير من الأحيان مسحة جميلة للتعبير الشعري. فإننا نرى أن طائفة من قصائد هذا الديوان تعلن الثورة على القافية الواحدة كما يتجلى ذلك من قصيدة «الطائر الجديد» التي أتى في كل بيت منها بقافية مغايرة، وقصيدته «بنات الخريف» التي نوع القافية فيها. ورأينا أبا شادي يلجأ أيضاً إلى القافية المزدوجة في كثير من قصائده التي نذكر منها «وحي المطر» و«القطعة اليتيمة» و«الوساوس» و«الطائر الرقيب» و«الإكسير» و«أنداء الفجر». وهذا الميل إلى الطلاقة والتحرر من عبودية القافية في سنن باكرة يحمل بذور ثورته التي تجلت اليوم في شعره المرسل، ذاك الشعر الذي كان هو وعبد الرحمن



شكري من رواده، وتجلت أيضًا في شعره الحر الذي كان هو أول من أدخله في الشعر العربي، وهذا الميل إلى التحرر من القافية هو الذي أثار هائجة المحافظين فزعموا أن هذا التحرر يُذهب الموسيقى ويضيع النغم. وهذا القول صادر عن جهل بأبسط المعارف الموسيقية: فإن آلات الأوركستر مثلًا لا يلزم أن تكون كل الأصوات المتصاعدة منها منسجمة النغمة بل قد تكون بعض الأصوات غير منسجمة ولا منغومة، والعبرة بوحدة الأصوات التي تكوّن النغم الموسيقي. فإذا فهمنا هذا الأساس أمكننا أن نفهم عدم ضرورة القافية الواحدة، ما دامت القافية المنوّعة تكوّن وحدةً موسيقيةً منسجمةً، ويكفي أن يخرج من كل بيت صوت موسيقي ولا يلزم أن يكون في كل بيت نغمة موسيقية.

فالموسيقى ولا شك توجد في القافية المنوّعة، ومن الملحوظ أن أعلام الشعر البارزين كانوا من أنصار الطلاقة في النظم ومن زعماء القافية المحرّرة. وقد لجأ الكثير منهم إلى القافية المنوّعة إذا أنسوا أن المعنى قد تفسده القافية الواحدة أو أحسوا أن القافية الواحدة تخمد العاطفة وتطفئ الانفعال. ونعرف من شعراء الغرب الذين لم يهتموا بالنغمة الموسيقية الشاعر الفرنسي الحساس «ألفرد دي موسيه» الذي لجأ في بعض الأحيان إلى الشعر المرسل ووجه إلى محبي القافية الواحدة من جماعتي الرومانتيكيين والبرناسيين عبارته الحادة الساخرة: «لا تنظروا إلى رداي وأحذيتي بل انظروا إلي وجهًا لوجه، انظروا إلى وجهي وحاولوا أن تقرأوا فكري من أعماق عيني.»

ولكننا نجد في كل زمان ومكان جماعة التقليديين والمحافظين والحفريين لا يحبون هذه الطلاقة لا في اللفظ ولا في المعنى ولا في القافية، ولا يميلون إليها جميعًا، ونعرف من هؤلاء في فرنسا الميسو دي بانفيل الذي كان يرى أن تفكير الشاعر هو القافية، وأن الشاعر لا رأي له، وإنما الشاعر هو من يؤلف القوافي ذات النغمات الموسيقية! ويتجاوب مع هذا التقليدي المريع جماعة المحافظين في مصر، وأولئك جميعًا يكفرون بالفكرة ولا يعرفون موسيقاها... أولئك لن تعمر أعمالهم أكثر من تعمير رنينهم في الأذان الأسيرة، بل أولئك جعلوا — مع الأسف — من الشعر صناعة وأفقدوه رسالته المقدسة التي جاء من أجلها وهي تثقيف الشعور وتنبيه الفكر وشحن الانفعالات وتهيئة الطمأنينة للروح، وأولئك قد شنوا حربًا شعواء على شعراء الشباب المجددين واستقبلوا بصيحات الغربان قصائد المجددين الذين يرون الجمال والموسيقى في الفكر وفي انسجام الترتيل. ولقد حملوا على شكري حملة غير شريفة، وها هم الآن يوجهون سهامهم إلى أبي شادي القوي

المراس، وإلى غيره من الذين ينادون بالشخصية في الأدب وبالطلاق والحرية والذين يهتمون بالفكرة ويدخلون الألفاظ الشعرية الجديدة والأخيلة الطريفة في أساليبهم الشعرية ويلبسون قصائدهم مسحة من الجاذبية الحبيبة لذوي النفوس المتصوفة والطبائع السمحة. وسوف تذهب هذه الصيحات الناعبة أدراج الرياح، وسوف يتجاوب الناس بشعر المجددين لأنه الشعر الطبيعي ولأنه القائم على تفهم روح الأشياء وعلى العاطفة الشعرية والتأثر الصادق والفكرة العزيزة، والزمن كفيل بأن يعيد المتعنتين إلى مهيع الصواب وسبيل الإنصاف، فيتجاوبون مع نفوس المجددين ويستمعون إلى مقياس أبي شادي الصائب في الحكم على الشعر حين يقول:

كُنْ أَنْتَ نَفْسِي وَأَقْتَرِنُ بِعَوَاطِفِي      تَجِدِ الْمَعِيبَ لَدَيَّ غَيْرَ مَعِيبٍ  
شِعْرِي - الَّذِي تَأْبَاهُ - أَنْفُسُ مُهَجَّتِي      وَكَفَاهُ أَنْ يَحْيَا بِنَفْسِ أَدِيبٍ  
عَبَثًا تُحَاوِلُ فَهَمَّهُ بِتَحَامُلٍ      إِنَّ الْعَدَاءَ يَرُدُّ كُلَّ حَبِيبٍ  
لَوْ طَرَّتْ فِي دُنْيَا خَيَالِي لَمْ تَكُنْ      إِلَّا رَفِيقَ مَسْرَّتِي وَوَجِيبِي  
مَا كَانَ هَذَا الشُّعْرُ مِنْ لُغَةِ الْوَرَى      لَكِنَّهُ قَلْبِي وَرُوحُ حَبِيبِي!

ولعله يأتي قريباً ذلك اليوم الذي يتجاوب فيه سواد الناس مع هذا الشعر الجديد، عندما يدركون مذهب الشعر ورسالته، وليس من شك في أن أرواحاً تتجاوب مع شعر المجددين في أقطار الشرق يجهلها المجددون كما يقول الشاعر الموهوب لامارتين في قصيدة «الخریف»:

لَعَلَّ فِي سَوَادِ النَّاسِ رُوحًا أَجْهَلُهَا تَفْهَمُ رُوجِي وَتَتَجَاوَبُ مَعِي

Peût être dans la foule, une âme que j'ignore

Aurait compris mon âme, et m'avait répondu.

ونحن نرحب بهذا الديوان الصغير العزيز لا باعتباره ذكرى من ذكريات حب الشاعر التالد، بل باعتباره نفحة من نفحات توريثه الفتية، وآية من آيات التجديد في أغراض الشعر ومعانيه وأسلوبه. ورجعة خاطفة إلى الديوان ترينا الشاعر قد احتفل بذكر الحب في كثير من القصائد، ونجد الروح الوطني ينعكس علينا من مرآة الماضي. فها هو الشاعر يرسل تحية بارعة إلى سجين القلم محمد بك فريد ويعتز بعاطفة الآباء

في قصيدته «عيش الحر» ويحيي صديقه الشاعر البارع علي الغياتي، ويحيي شهيداً من شهداء السياسة، ويقف متحدتاً بخلال مصطفى كامل رحمه الله في حجه حول تمثاله، ويضم إلى صدره وطنه الكليم في حنو وإشفاق، ويذكر في تأثر ودموع الخُلف بين الأحزاب المصرية من ربع قرن بروح نَزاعة إلى القومية الصادقة عازفة عن التحزب البغيض، وهي الروح الصافية التي صاحبته منذ حادثته إلى الآن. فهذا هو مثلاً يخاطب المجاهد النبيل فريد بك قائلاً:

سَيَّانَ كُنْتَ بِنِعْمَةٍ أَوْ نِقْمَةٍ      مَا دُمْتَ تَرْضَى بِالْجِهَادِ حَجَاكَ  
سَيَّانَ كُنْتَ مُقْرَبًا أَوْ مَبْعَدًا      مَا دَامَ حَرْبُ الْعَابِثِينَ مُنَاكَ  
وَكَفَاكَ فَخْرًا أَنْ تَنَاضَلَ أُمَّةً      كَمْ أَرْهَقَتْ مِنْ مُصْلِحِينَ سِوَاكَ

وها هو يصف الزعيم الأبى الشجاع مصطفى كامل بقوله:

يَا كَبِيرَ الْيَقِينِ فِي قُوَّةِ الْحَقِّ      سِقَ وَيَا بَانِيًا قُلُوبَ الرَّجَالِ  
يَا كَثِيرَ الْإِبَاءِ فِي دَوْلَةِ الْأَبِّ      غِي وَيَا نَاسِفًا صُرُوحَ الضَّلَالِ

إلى جانب هاتين العاطفتين المنبتتين في شعر أبي شادي، وهما عاطفة المحبة الطاهرة وعاطفة الوطنية المتحمسة، نجد الديوان يحوي نماذج من الشعر الفلسفي والشعر الغنائي وشعر الطبيعة. فشعره الفلسفي يتجلى في قصائده «التبرم» و«حظ الناقلين» و«الدنيا» وغيرها من القصائد. والشعر الغنائي ظاهر في قصيدته «وطني! وطني!». أما شعر الطبيعة فما أحفل الديوان به، وقد أتينا على نماذج منه في قطعة «حياتان» التي يذكر الشاعر الطبيعة فيها ويجد في حنانها ووداعتها لذته وأنسه، وفي «أنفاس الخزامى» التي فاح في الديوان عطرها، وفي قطعة «وحي المطر» وفي قصيدة «مسرح الليل» التي وصف فيها الليل بأنه مسرح للطهر والتهتك:

مَسْرَحَ اللَّيْلِ! أَيُّ مَلْهَى عَجِيبٍ      أَنْتَ تَبْدُو لِلشَّاعِرِ الْفَنَّانِ  
أَنْتَ مَلَقَى الْعُبَادِ وَالطُّهْرِ بَيْنَا      أَنْتَ مَجْلَى التَّهْتِكِ الْمُتَفَانِي!

ثم يصف فيها وحي النجوم وصفاً دقيقاً إذ يقول:

وَالنُّجُومُ الَّتِي تُطَلُّ عَلَيْنَا فِي حَنَانٍ وَرَعَشَةٍ وَافْتِتَانٍ

والذي يثير إعجابنا حقاً أن نجد الشاعر الشاب يسبق جيله في طَرْقِ موضوعات تبدو تافهة، موضوعات غريبة على معاصريه، كما نجد ذلك واضحاً في قصيدته «القطعة اليتيمة» التي أخذ يخاطبها بقوله:

جَلَسْتِ قُرْبِي كَأَنَّ قُرْبِي عَزَاءُ إِحْسَاسِكِ الْيَتِيمِ  
وَكَمْ تَأَلَّمْتُ فِي حُنُويِّ عَلَيْكَ فِي صَمْتِكَ الْأَلِيمِ

ثم ينتهي بمخاطبتها في حنان ورقة إذ يقول:

فَلتَغْنَمِي أَنْتِ مِنْ حَنَانِي مَا شَدَّتْ يَا طِفْلَةَ الْعَرَامِ

وهذا الميل إلى الخطرات التأملية ومعالجة الأشياء البسيطة ظهر واضحاً جلياً في شعره فيما بعد، وقد أتينا على نماذج من هذه الخطرات في مقال عن «أبي شادي الشاعر» نُشِرَ بملحق (السياسة) الأدبي، ولعل هذا الميل أيضاً هو آية من آيات المزاج الشعري الدقيق والذي سبقنا إليه بعض شعراء الغرب الكبار مثل شاعر الطبيعة الإنجليزي وردزورث الذي كان يرى أن أحقر الأشياء تصلح للشعر، ومثل الشاعر الفرنسي بودلير الذي رأى «كلباً ميتاً» مسجى على العشب بين الأزهار النضرة، فأخذ يصفه وصفاً غريباً مدهشاً، والذي وصف قطه الجميل ذا العينين الزمرديتين والذي تمثلت له فيه زوجته! فنظراتها كنظرات هذا الحيوان الوديع!

وما أروع وأبداع ما قاله أبو شادي في وصف هذا الميل الشعري في أبياته الساخرة الحنونة:

مَنْ كَانَ يَشْعُرُ دَائِمًا بِشُعُورِي فِي اللَّيْلِ أَوْ فِي الْفَجْرِ أَوْ فِي النُّورِ  
وَيُصَاحِبُ الْأَجْرَامَ فِي حَرَكَاتِهَا وَيَجُوزُ عَيْشُ النَّاسِ كَالْمَسْحُورِ  
وَجَدَ التَّجَدُّدَ دَائِمًا لِأَفَّا لَهُ فِي النَّفْسِ أَوْ فِي الْعَالَمِ الْمَعْمُورِ

وَرَأَى الْحَيَاةَ بِمَا تَجَدَّدُ دَائِمًا      أَسْمَى مِنَ الْإِفْصَاحِ وَالْتَّعْبِيرِ  
تُوجِي وَتُوجِي دَائِمًا، فَإِذَا الَّذِي      أَوْحَتْهُ بَعْضُ جَدِيدِهَا الْمَقْدُورِ  
لَوْ أَنْصَفَ الشَّعْرَاءُ مَا قَنَعُوا بِمَا      خَلَقُوهُ مِنْ شَعْرٍ وَمِنْ تَصْوِيرِ  
كَمْ فِي الْحَيَاةِ مُجَدَّدٌ لَا يَنْتَهِي      وَلَكَمْ حَقِيرٍ وَهُوَ غَيْرُ حَقِيرِ

من هذا نرى أن شعر أبي شادي تأثر في حياته الأولى بالحب الطهور، وامتزج بالعاطفة الوطنية الحارة، وتأثر بالطبيعة المصرية، وتلون بإيحاء أعلام الشعراء وإن تجلت فيه شخصيته بدرجات مختلفة. تلون بوطنية حافظ الصادقة، وموسيقى شوقي المنغومة، وأخيلة مطران الحرة. وهذا التأثير ظاهر في كثير من قصائده، ويتجلى ذلك مثلًا في قصيدته «الحب والأمل» التي جاء فيها:

وَفَى الرَّبِّيعِ فَحَيِّ الْحُبِّ وَالْأَمَلَا      وَسَائِلِ الذُّكْرِ إِنْ كَانَ الْفُؤَادُ سَلَا  
وَاحْفَظْ حَدِيثَ الْعَوَانِي فِي أَزَاهِرِهِ      وَاحْرِصْ عَلَى النَّفْسِ أَنْ يَدْنِيَ لَهَا الْأَجَلَا  
مِنْ كُلِّ هَيْفَاءٍ إِنْ مَاسَتْ وَإِنْ نَظَرْتَ      لَمْ تَتْرِكِ الْقَلْبَ إِلَّا حَائِرًا وَجَلَا

فإن أثر شوقي محسوس في هذه القصيدة. ولكن أبا شادي لم يقف عند حد مثل هذا التأثير ولا عند حد تجاوبه مع زعيم المجددين خليل مطران، بل تحول إلى الأدب الإنجليزي وتأثر به على قدر مطالعته في ذاك الحين. وظهر أثر هذا التأثير في قطعة «موسيقى الوجود» التي نظمها متأثرًا بقصيدة «موسيقى العالم» للشاعر جبرائيل سيتون. وإلى هذا فإننا نلاحظ في هذا العهد نزوع الشاعر النسبي إلى الابتكار وإلى التفكير الحر وإلى الطلاقة الشعرية، كما يتجلى ذلك في قصيدته «أنفاس الخزامى» وهي من أفكاره الأصيلة، وفي قصيدته «بنات الخريف» التي نزع فيها نزعة مستقلة متجردة عن آثار كبار الشعراء في عصره، وهذا ينم عن وجود شخصية فنية فنية تعمل للبروز وللحياة، شخصية بدأت مرحلتها الفتية مدفوعة بعاطفة الحب الفردي والحب القومي وأخذت تتطور إلى العاطفة الإنسانية العامة، وغمرت تلك العاطفة الأخيرة دواوينه التي نُشرت حديثًا. فعاطفة الحب الفردي اختفت تقريبًا من دواوينه الأخيرة وإن كان قلبه لا يزال يندلع به للهب، وعاطفة الوطنية المتحمسة هدأت واعتدلت وتسيطر عليها العاطفة الإنسانية التي جعلته يميل إلى «الأسلوب المتعادل» يعبر به عن شعوره، وينزع إلى الطلاقة في التفكير والصدق في الطبيعة، وإلى الانسجام في الترتيل، وإلى الروح الشعرية

العامة التي تجعل شعره قابلاً للترجمة إلى أية لغة، وبهذا كَوَّن أبو شادي لنفسه نزعة خاصة، وشخصية فنية مستقلة.

ولنا كل الحق بعد هذا أن نرحب بهذا الديوان البكر في ثوبه الجديد لأنه قطعة من نفس الشاعر وعمل يفتخر به كبار الأدباء في نشأتهم، ولأنه من البذور الأولى لأزهار الشعر الحديث ومن الإرهاص الأول لحركة التجديد الأخيرة.

ونكرر التأكيد بأن هذا الديوان سوف يرضي بجمال ديباجته جمهرة المحافظين وقد أَرْضَى أمثالهم من قبل، كما سوف يبهج بجرأة أخيلته وبراعة تصويره أذهان المجددين. ونحن بلا ريب نفخر بجهود أبي شادي التعاونية الحاضرة وبروحه الأدبية النبيلة المتسامحة، التي لا نجدها في جمهرة أدبائنا، ولا نريد أن نترك القلم حتى نسجل أسفنا للحملات المجنونة التي يشغب بها فريق من المحافظين وبعض العائرين من عجزة الأدباء ضد أبي شادي وضد أدباء الشباب، بل نأسف أكثر من ذلك لتلك الطعنات التي يوجهها إليه حتى بعض من أشاد أبو شادي بذكورهم. ويسرنا أن أبا شادي يقابل تلك الحملات بالسماحة، وبالإنتاج الفكري المطرد، تاركاً لأعماله ذاتها إِنْصَافَ نفسها بنفسها، وقد تعود الألام والجحود من قديم في بيتنا المصرية المتأخرة فناجى نفسه مناجاة قوية في قصيدته الرائعة «فؤادي» التي يقول فيها:

وَكُنْ بِصَلَابَةِ الْحَجَرِ الْكَرِيمِ	تَشَجَّعْ فِي الْمَصَائِبِ يَا فُؤَادِي
خَبِيءٍ لَا يُعَرَفُ لِلْإِيمِ	أَلَسْتَ كَجَوْهَرٍ فِي طَيِّ جِسْمِي
نُيُوبًا لَنْ تَنَالَ مِنَ الْعَظِيمِ!	إِذَا الْأَحْدَاثُ عَضَّتْ فِيكَ فَانْكَسِرْ

ولا ريب أن الأدب المصري يغتبط أشد الاغتباط بمثل روح أبي شادي كما يشجى أشد الشجى من تصرفات الأدباء الناقمين، وأن التاريخ الأدبي ليجذل أيضاً بخروج هذا الديوان من اعتكافه لأنه يحمل ذكريات أيام طيبة خالية، ويزيح الستار عن صورة التطور الروحي للشاعر، ويكشف عن شخصيته الفتية التي بدأت تتفتح للنور وتشق طريقها إلى الفن وإلى المجد. ولكأنى به يرسم خطرات نفسه الطموح في عهد الحداثة بقوله في مقطوعة «حظ الناقلين»، يقول:

سَلَخْتُ مِنَ الْأَعْوَامِ بَضْعًا وَعَشْرَةً      أُقِيمُ عَلَى دَيْنِ الْعُلَا وَأَسِيرُ  
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِي الْقَلْبِ لَوْعَةٌ      عَلَى أَنْ كُلِّي هِمَّةً وَمَرِيرًا!

وبودّي لو يتنبه جمهرة القراء إلى جهود هذا الشاعر الإنساني، ويتمعنوا في شعره وأخيلته ليلمسوا ما يعيه من شاعرية صافية ويمسوا ما فيه من جمال محجب.  
ولا يسعني أخيراً إلا أن أقدم للشاعر إعجابي بروحه الأدبي النبيل، وثنائي على ديوانه البكر الفريد،

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

## (٢) شخصية أبي شادي ومميزات شعره

إنها لفرصة سعيدة، تلك التي أتاحتها لنا الشاعر المجدد الدكتور زكي أبو شادي بإعادة طبع ديوانه الأول (أنداء الفجر) لتحدث عنه وعن الباكورة الأولى، وما اشتملت عليه من شعر الطبيعة والتصوير والعاطفة، ومميزات الشخصية في هذا الشعر، وخصائص التجديد فيه.

وإذا أردت أن أتحدث إليك عن الشاعر أبي شادي أو أرسم لك صورة عنه فلا تظن أنني سأجمع كل أدوات التهويل والتضخيم مستعيناً بها! كلا، فما تصورت أن أتناول الناس بمثل هذا، ولا أحسبه يرضى بذلك، ولكن سأحاول أن أرسم لك صورته دون زيادة أو نقصان، وإن كنت لم أره غير مرة واحدة إلى اليوم. إن أبا شادي رجل اعتيادي لا يروعك صامتاً، ولكنه إذا ما تحدث إليك راعك منه أنه يحيا في الحياة، بنفس طفل، وقلب شاعر، وفكر فيلسوف. وهو لا يحاول التحامل على الغير كاتباً أو محدثاً، فهو إذا حدثك عن أديب أو شاعر، ذكر لك محاسنه ومساوئه كما يرى هو دون تحيز أو افتئات، وموقفه ممن يسيئون إليه دائماً هو موقف الرثاء لهم، أو الإشفاق عليهم، وكم مطاعن وُجّهت إليه فاستقبلها باسمًا ثابتاً، كما يثبت الطود الأشم للإعصار العتي، وكثيراً ما عادت عليه هذه المطاعن، بعكس ما كان ينشده أصحابها:

كَمْ مِنْ مَطَاعِنَ لِي تُكَالُ كَأَنَّهَا      شَرَفٌ يُكَلِّلُ هَامَتِي بِالْغَارِ!

وهو لا يندم إذا ما جزاه الناس على حسناته بالقحة والتقول، ولكنه يلتمس لهم المعاذير، لعلمه أن هذه هي طبيعة الحياة:

فِيمَ النَّدَامَةِ إِنَّ شُئِمْتُ دَنَاءَةً      وَجَزَاءَ مَا أَسَدَيْتُ مِنْ حَسَنَاتٍ؟  
النَّحْلُ يُعْطِي الشَّهْدَ جُودًا سَائِغًا      وَلَكُمْ يُكَافِئُهُ الْوَرَى بِأَذَاهِ!

فهذا الشاعر هو في الواقع رمز التسامح والنبيل، وكلما أخرجت صدره المحرجات هرب من هذه الدنيا الخسيسة إلى دنيا التفاؤل والخيال، ليتلهم بمناظرها وليغرق في محيطها ما علق به من أوشاب حياتنا الذميمة:

وَأَعِشْ فِي دُنْيَا التَّفَاؤُلِ نَاسِيًا      دُنْيَا تَفِيضُ قَسَاوَةً وَعَدَاءًا!

ولم يخدم الأدب والشعر في هذه الأيام أحدًا بمثل ما خدمهما ذلك الشاعر، فلقد أنشأ مجلة (أپولو) وجعلها منبرًا حرًا للشعر والدراسات الشعرية، فأوجد بذلك نهضة في الشعر حرية بالالتفات إليها، كما كشف لنا عن أكثر من خمسين شاعرًا، كانوا لولاه سيظلون مغمورين مجهولين، لا يحس بهم أحد، ولا يعلم من أمرهم شيئًا. وأكثر من هذا أنه كان وما زال ينشر الأبحاث ناظرًا لأهميتها دون أصحابها، وكثيرًا ما كان ينشر الأبحاث لأعدائه، يذمونه فيها ويعيبون طريقته، وكثيرًا ما كان يؤثر هذه الأبحاث على أبحاث أخرى ترد إليه وكلها مدح فيه، واستحسان لطريقته ومذهبه، فقل لي بربك من رئيس التحرير هذا الذي ينشر لخصومه سهامهم المفقوة إليه؟ أما أنا فلا أعلم أن أحدًا من رؤساء التحرير بلغ به النبيل أو التسامح إلى هذا الحد، ولكني أعلم أنهم يفرقون كل الفرق من النقد الخفيف يوجّه إليهم، كما أعلم أنهم لا يتورعون عن أن ينشروا كل كلمة من مدح أو استحسان تصاغ فيهم، حتى ولو كان صاحبها يقصد بها إلى المداعبة والسخرية من طرف خفي.

ذلك هو شاعرنا المتجدد أبو شادي في كلمات قصار. وأعود الآن بك أيها القارئ إلى ديوانه الأول (أنداء الفجر) بعدما تشعب بنا وبك الحديث، فالكلام عن هذا الديوان هو الغرض الأول وبيت القصيد، ولعل الذي حفز الشاعر إلى إعادة إخراج هذا الديوان من جديد هو تحقيق رغبة حبيبته الأولى «زينب» صاحبة هذا الديوان، وموحية فرائده، والتي يهدى إليها الديوان في قصيدة رائعة مؤثرة منها:



رُبْعُ قَرْنٍ مَضَى وَهَيْهَاتَ تَمْضِي  
لَمْ أزلْ ذَلِكَ الْفَتَى فِي جُنُونِي  
ذِكْرِيَّاتِ الْهَوَى وَأَشْبَاحِهِ النَّشْوَى  
نَشَرْتُ فِي السُّطُورِ بَعْدَ اخْتِجَابِ  
كَمْ شَقِينَا تَفَرَّقْنَا وَحَيَاءً  
وَرَجَعْنَا نَنُوحُ نَوْحَ يَتِيمَيْنِ  
عَلِمَ الْحُبُّ لَيْسَ غَيْرَكَ مُجْدِي  
شُعْلَةُ الْحُبِّ عَنْ وُثُوبٍ وَوَمِضٍ  
وَفُؤَادِي فِي نَبْضِهِ أَيَّ نَبْضِ  
أَمَامِي فِي كُلِّ صَحْوٍ وَغَمِّضِ  
كَثِّيرِ الْحَيَا عَلَى زَهْرِ رَوْضِ  
وَخَضَعْنَا لِحُكْمِ دَهْرٍ مَمِضٍ  
عَلَى ذَلِكَ الصَّبَا الْمُنْقِضِ  
فِي وَقَاءٍ وَلَيْسَ غَيْرَكَ حَفِضِي!

ولعل الذي دعاه إلى ذلك، هو إلحاح إخوانه وأصدقائه عليه بإعادة طبعه، لما فيه من روح الصبا، التي لم يبقَ له منها غير الذكريات التائهة والحنين الشارد. ولعل الذي دعاه أكثر من ذلك، هو شوق أشقاء هذا الديوان وهم كثر بين أنين ورنين، ومصريات، وزينب، ووطن الفراغة، والشفق الباكي، وأشعة وظلال، ووحى العام، والشعلة، وأطياف الربيع، والينبوع ... وغيرهم، إلى أن يجدد والدهم البار شباب شقيقهم الأكبر فيسعدوا بطبعته، ويحيوها ليلة شاعرية في مولده.

أما نحن فإنه ليهما كثيرا أن يظهر هذا الديوان، ولو لم يعمل الشاعر على إظهاره مؤثرا كعادته الإنتاج الجديد لطالبناه به لأننا نريد أن نعرف، هل كان المذهب الشعري الذي يدعو إليه شاعرنا في هذه الأيام متميزا في أشعاره الأولى أم هو طارئ عليه بعد الدراسة الطويلة في الآداب الفرنسية؟ وهل شخصيته التي تطالعنا في دواوينه الحديثة هي شخصيته الأولى، أم أصابها شيء من التحوير؟ وما هي الأغراض والدواعي التي كان يقول فيها الشعر، في الوقت الذي كان فيه كثرة الشعراء المعاصرين ينفون أوقاتهم في معارضة المنتبهي أو البحترى أو أبي فراس وغيرهم؟ أو في نظم القصائد المهلهلة في مدح من لا يستأهل المدح، أو رثاء من لا يعرفون، رغبة في الظهور على جثث الموتى وأشلاء الذاهبين؟

يتلخص مذهب أبي شادي الشعري في تجديد اللفظ والأسلوب والقافية والمعنى، فهو كثيرا ما يترفع عن الألفاظ والأساليب التقليدية حتى يظن المتزمتون أنه يتهاون في ألفاظه وأساليبه، وهو يحل نفسه من قيود القافية في كثير من شعره، حتى ليخيل إليهم أن ذلك ضعف وعدم قدرة على مسابقة القافية الواحدة. وهو يتعمق في كل معنى

يلمسه، ويجيل طرفه في كل ما يحيط به كبر أو صغر، فيخرج منه معنىً شعرياً جديداً، فيحسب الجامدون أنه لا يتخير موضوعات شعره، فإذا سمعوه ينظم في «ذباب الصيف» صاحوا به: أوحى الذباب يستأهل منه العناية والالتفات؟ يا للعجب! وما يبقى للشاعر أيها الفقيه إذا لم يسجل كل ما تنفعل له نفسه هان أم عظم؟ ولكن الشاعر لا يجشمننا مشقة الرد عليهم في ذلك، فيدحض هو هذه الفرية في قصيدة «التجدد»:

لَأُمُوا شُبُوبَ عَوَاطِفِي وَتَخَيَّلِي	وَتَدْفُقِي بِالشَّعْرِ مَلءَ شُعُورِي
وَأَنَا الْخَجُولُ أَمَامَ مَا أَنَا نَاطِرٌ	مِنْ كُلِّ مَوْحٍ بَالِغِ التَّأثيرِ
فَيَهْزُنِي هَذَا، وَلَكِنِّي الَّذِي	مَهْمَا أَجَدْتُ أَحْسُ بِالتَّقْصِيرِ
وَأَكَادُ أَوْقِنُ أَنَّ مَنْ هُوَ لَائِمِي	إِمَّا ضَرَّرَ أَوْ شَبِيهَ ضَرِيرِ
إِنَّا بِكُونَ كُلهُ شِعْرٍ بَلَا	حَصْرٍ، وَكَمْ مِنْ عَاجِزٍ مَغْرُورِ!

وقد جمع أبو شادي في (أنداء الفجر) ألواناً من شعر الوصف، والحب، والوطنية، والهيام بالطبيعة، والفلسفة، وهو في كل ناحية من هذه النواحي، لم يشذ عن طريقته أو يخرج على مذهبه.

فاستمع إليه وقد أخذ يصور لك أنداء الفجر، على ثغور الأزهار، وفي ألق الشعب، وفوق الغصون، بشعر لم يسعد الشعر العربي بأبداع منه لفظاً ومعنى ورقة وعذوبة، فيقول:

مِنْ دُمُوعِ النُّجُومِ، مِنْ سَهَرِ العَا	شِقِ صِيغَتِ، وَمِنْ رَجَاءِ الحَيَاةِ
فِي حَنَانِ وَرِقَّةٍ، وَهِيَ لَا تَمُ	لِكَ مِنْ عُمْرِهَا سِوَى لِحَظَاتِ
فِي ثُغُورِ الأزْهَارِ، فِي أَلْقِ العُش	بِ وَفَوْقِ الغُصُونِ تَحِيًا وَتَفَنِي
وَهَبَّتْ حُسْنَهَا الصُّحْبَةَ لِلشَّم	سِ، كَأَنَّ الفَنَاءَ لِلشَّمْسِ أَعْنَى
وَيَعُودُ الفَجْرُ الوَفِيُّ بِهَا بَع	ثًا وَلَكِنْ تَعُودُ تَمْضِي الصُّحْبَةَ
هِيَ مَلِكُ لَنَا حَيَاةً وَمَوْتًا	وَهِيَ بِالرُّوحِ صُورَةَ الأَبَدِيَّةِ

إن هذه المقطوعة البارعة من الشعر التصويري حسنة من حسنات الشاعر، ولو لم يكن له غيرها في الوصف لكفته غنى فنياً.

ويرى شاعرنا القارب يشقُّ طريقه على صفحة الماء في زهور وابتهاج، فيشجيه هذا المنظر ويسترعي خياله، فإذا به يطرفنا بصورة صغيرة:

يَشُقُّ الْقَارِبُ الْمَرْهُوْ مِنْلِي      طَرِيقًا فِي الْمِيَاهِ مَعَ ابْتِهَاجِي  
فَيَكْسِرُ صَفْحَةً لِلْمَاءِ رَاقَتْ      وَنَسْمَعُ صَوْتَ تَكْسِيرِ الرَّجَاجِ

فهنا يذكرنا أبو شادي بأيام طفولته وابتهاجه، أيام كان يكسر الزجاج وغيره كما يكسر القارب صفحة الماء الراققة.

وأزهار الخزامى، ماذا كان شأنها مع الشاعر؟ إنها لأزهارٌ مصريةٌ صميمةٌ ومن مصر انتشرت إلى سائر الأقطار، ولقد وقف أمامها الشاعر يحدثنا في غزل صوفي عن أنفاسها ويصف ما توحى به إلى النفوس الشاعرة، من خطرات ومعانٍ ساميات:

أَيُّ عَطْرِ فَاقَ أَنْفَاسَ الْخَزَامِي      فِي حَنَانٍ يَمَلَأُ الرُّوحَ سَلَامًا؟!

\* \* \*

لَا يَرَاهَا غَيْرَ مَنْ كَانَتْ لَهُ      رُوحَهَا أَوْ مَنْ يُحَاكِئُهَا غَرَامًا  
تَتَوَارَى عَنْ عُيُونٍ لَا تَرَى      بِقَّةَ الْحُسْنِ، وَأُخْرَى تَتَعَامَى  
أَيُّهَا الْأَنْفَاسُ طِيبِي وَأَنْشُرِي      خَطَرَاتِ الْحُبِّ حَتَّى يَتَسَامَى  
كَمْ وَقَفْنَا فِي مَجَالِي نَشْوَةِ      عِنْدَ مَرَاكٍ فُتُونًا وَاحْتِشَامًا  
لَمْ نَقْبَلْ غَيْرَ مَعْنَى حَائِمٍ      حَوْلَنَا مِنْكَ عَشِقْنَاهُ دَوَامًا!

واستمع إليه وهو يصف لك مسرح الليل وما يختلف عليه من مرآة ومشاهد عجيبة، تخلقها يد الليل الساحرة، أو تمنع في مقطوعته «بنات الخريف» والتي يقول في مطلعها:

هَلْمِي! هَلْمِي!      بَنَاتِ الْخَرِيفِ  
وَطُوفِي وَطُوفِي      بِهَذَا الْحَفِيفِ  
نَرَاكَ بِأَوْهَا      مِنَّا جَائِلُهُ!

فإنك لا شك واجدٌ ضروريًا من الوصف جديدة تشهد لصاحبها الناشئ بأن سيكون له في المستقبل شأنٌ عظيمٌ في الوصف. أوليس هو القائل بعدُ في ديوان (الينبوع) عن فتيات الريف قد اجتمعن على شاطئ الغدير يملأن الجرار ويغسلن الثياب:

مَا بِالْهِنَّ لَدَى الْغَدِيرِ حَوَانِيَا      يَنْشُدْنَ لِلْمَاءِ النَّشِيدَ الْغَالِيَا  
وَالْمَاءُ يَضْرِبُ فِي حَنَانٍ دَافِقٍ      أَقْدَامَهُنَّ فَمَا تَرَاهُ يُبَالِي؟!  
يُغْسِلْنَ عَابِسَةَ الْمَلَابِيسِ تَارَةً      وَالشُّطُّ مَزْهُوٌّ بِهِنَّ مُبَالٍ

إني لأكاد أسمع من خلال هذه الأبيات أناشيد الريفيات وامتداد الماء إلى الشاطئ مرتميًا على أقدامهن في حنان دافق، كما أكاد ألس فرحة الشط بهن، ومع ذلك يتصاح الجامدون: أين الشاعر المصري الذي يصف الحياة المصرية؟! ثم أليس قد أبداع أيضًا إذ وصف الجدول الصغير جاريًا كما تجري الطفولة في ابتهاج على حين قامت حوله الحور كأنها تحرس جسمه العاري فيقول:

وَبَدَا الصَّغِيرُ الْجَدُولُ الْجَارِي كَمَا      تَجْرِي الطُّفُولَةُ فَرِحَةً وَحَنَانَا  
فَغَبَطْتُهُ، وَالْحُورُ قَامَتْ حَوْلَهُ      كَالْأَهْلِ تَحْرُسُ جِسْمَهُ الْعُرْيَانَا

ويجب أن ننبه هنا إلى أن أبا شادي يكثر دائمًا من تقديم الصفة على الموصوف للتنبية الشعري كما يقول «وبدا الصغير الجدول»، وأنا لم أر ذلك لشاعر من قبله ولعلها إحدى حسناته.

فمما تقدم تستطيع أن تدرك أيها القارئ مدى تفوق شاعرنا في الوصف، وقدرته على أن يريك ذوات موصوفاته كائنات حية تفرح وتغتبط. أما الغزل فله النصيب الأوفى من الديوان، وما هو إلا صلوات يتقرب بها إلى حبيبته الأولى «زينب». ولقد اشتدت العلة بشاعرنا يومًا، فإذا هو ينشد بين الحب والأمل قصيدًا سائغًا، يصف فيه حاله، ويعتب على الدهر، ويعد عليه ذنوبه، ويوسع معبودته جدلاً طويلاً على نومها عنه، وهي تداعبه وتبكي له وتقربه:

مَرَّتْ كَحُلْمٍ يُجَارِيهِ الدَّلَالُ فَلَا      نَمَّتْ عَلَيْهِ، وَلَا أَحْفَتْ لَهُ مَثَلَا  
وَدَاعَبْتَنِي بِصَوْتِ خَافِتٍ وَبَكَّتْ      وَقَرَّبْتَنِي، وَقَالَتْ: حَسْبُنَا جَدَلَا

الدَّهْرُ فَرَقَنَا، والدَّهْرُ أَلْفَنَا فأنس الذُّنُوبَ، وَلَا تَعْتَبْ لِمَا فَعَلَا!

فانظر إلى قوله: «قربنتي». في البيت الثاني، وإلى حذف متعلق الفعل، ثم قل لي: أي سحر أو حسن، وأي أفق من النعيم، يختفي وراء هذه الكلمة العذبة بعد الحرمان الطويل؟ وتقف الأمواج من على شاطئ الحب، وتباعد الأيام بينه وبين عهود صباسته الأولى، ثم يلتفت فجأة ليرى أين هو من هذه العهود، فإذا هو قد بعد عنها، أو قد بعدت هي عنه، وإذا هو لا يرى معلماً يهتدي به، أو شرفاً مطمئناً يأوي إليه، وإذا هو ينشد في لوعة جازعة، وحسرة غائرة:

مَا يَنْفَعُ الصَّبَّ الْكَثِيبَ مِنَ الْجَوَى	حَتَّى يَحِنَّ إِلَى الْبُكَاءِ حَيْنَنَا؟
أَسْفِي عَلَى عَهْدِ الصَّبَابَةِ لَمْ يَكُنْ	إِلَّا شِعَاعًا كَازِبًا مَظْنُونًا!
أَسْفِي عَلَيْهِ وَقَدْ فَقَدْتُ شَبَابَهُ	وَوَهَبْتُ فِيهِ فُؤَادِي الْمَغْبُونَا
وَوَظَلْتُ مَحْزُونًا أَكْفِكُفُ أَدْمُعِي	أَمَلًا، وَعَشْتُ مُتَيِّمًا مَفْتُونَا
مُتَّصِدًّا مِنْ لَوْعَةٍ، مُتَرَاجِعًا	مِنْ هَيْبَةٍ، مُسْتَغْفِرًا، مَسْجُونَا
يَا حَسْرَةَ الْقَلْبِ الضَّعِيفِ إِذَا رَجَا	مَنْ لَا يَزَالُ عَلَى الْوَفِيِّ ضَيْنَا!

وهو لا يمكن أن يتلهى عن «زينب» أو يحيا في غير «زينب»، بل هو ما زال إلى اليوم يسير على وحي «زينب» مهما غبنته ومهما عانى في سبيلها:

أَزَيْنَبُ! إِنَّ حَيِّتُ فَمَا حَيَاتِي	سَوَاكِ، وَمَا عَدَاهَا الْآنَ فَانِي
تُرَى هَلْ بَعْضُ أَشْوَاقِي يُرَجِّي	لَدَيْكَ، أَمْ الطُّفُولَةَ لَا تُعَانِي؟
كِلَانَا فِي الْهُوَى طِفْلٌ، وَلَكِنْ	أَنَا الطُّفْلُ الْغَيْبِيُّ! أَنَا الْمُعَانِي!

وتشيع أشعاره في «زينب» فإذا قومها حانقون عليه غاضبون، وإذا هم يحجبونها، ويبالغون في الحجاب، وما أشقَّ الحجاب على نفس الشاعر العاشق، وإن الموت لأهون عليه من أن يحترق بنار الحرمان وجحيم الحجاب، ولولا التقاليد القاسية ما حال بينه وبينها حجاب أو باب، وماذا يحذُّ لو ظهرت المرأة في مجتمعنا المصري، وهل ينتظر التقدم لشعب نصفه مفقود، أو سجين بين الجدران، فلا يستنشق الهواء، ولا يتمتع بنور الشمس؟ إن المجتمع الذي لا تباركه المرأة لا يمكن أن تقوم له قائمة بحال، ذلك أقل ما

يطوف برأس الشاعر عندما يذوده الناس عن مورده، كما أنه يرى العدم حيزاً من حياة تتحكم فيها التقاليد، وذلك ما حداً بأبي شادي عندما حجبوا «زينبه» أن يصيح:

يَا «زَيْنَ» دُنْيَايَ الَّتِي مَا نَالَني مِنْهَا سِوَى قَلْقِي عَلَى جِرْمَانِي  
لِمَ يَحْجُبُونَكَ؟ هَلْ أَثْمْتُ بِكُلِّ مَا أُعْطِيتُ حُسْنِكَ مِنْ جَمَالِ بِيَانِي  
فَإِذَا حُجِبَتْ فَمَنْ أَحْصَى بِمُهْجَتِي؟ وَلِمَنْ أَعِيشُ؟ وَمَنْ لَهُ وَجْدَانِي؟

وتهطل السحب بالمطر مدراراً، فإذا هو يوحى إليه بالظماً على حين قد رويت الغصون والأزهار، وإنه ليعجب كيف تتساقط القطرات من يد زهرة ليد أخرى، وهو وحيد ينشد الري، وكيف لا يذكر القطر حبيبته برسالة الحب فعساها تذكر، وتعطف عليه كما يعطف القطر على الأزهار والأشواك؟ وإني لأحس حقيقةً بظمته عندما أقرأ هذه الأبيات:

أَنَا ظَامِيٌّ وَالْكُلُّ حَوْلِي ظَامِيٌّ هَذِي الْغُصُونُ تَنَاولَتْ مَا حَصَّهَا  
فَتَقَطَّرِي يَا سُحْبُ كَيْفَ حَنَنْتِ وَلَبِئْتُ فِي ظَمِّي لَوْحِيكَ أَنْتِ  
لِيَدٍ، لِأُخْرَى، وَالْجَمِيعُ سُكَارَى لِيَدٍ، لِأُخْرَى، وَالْجَمِيعُ سُكَارَى  
حَتَّى تَرُدَّ جَوِي، وَتُطْفِئَ نَارًا؟! حَتَّى تَرُدَّ جَوِي، وَتُطْفِئَ نَارًا؟!  
بِرِسَالَةِ الْحُبِّ الْوَفِيِّ الْبَاكِ؟ بِرِسَالَةِ الْحُبِّ الْوَفِيِّ الْبَاكِ؟  
كَالْقَطْرِ فَوْقَ الزَّهْرِ وَالْأَشْوَاكِ! كَالْقَطْرِ فَوْقَ الزَّهْرِ وَالْأَشْوَاكِ!

وكثيراً ما أبت عليه عبادته المتناهية لزينب كل مطمع، وكثيراً ما جنى عليه حياؤه، وأضاع أشواقه، فإذا كان قريباً منها بجسمه فهو بعيدٌ عنها بقلبه، هذا القلب الذي قد حُرِمَ كل شيء، فهو القريب البعيد، وهو هنا في حيرة بين عقله وعاطفته، فهو يريد كل شيء، ولكن عقله يصده عن أي شيء! فماذا يصنع؟ لا شيء إلا هذه المقطوعة من الغزل الرفيع:

مَا لِعَيْنِي كُلَّمَا أَلَقَاكَ بِالْفَرَحَةِ تَدْمَعُ؟  
بِي رَجَاءٍ لَيْسَ يَحْبُو، وَرَجَاءٍ لَيْسَ يَلْمَعُ  
وَأَنَا كَالتَّائِهَةِ الْعَانِيَةِ إِلَى الْأَوْهَامِ أَفْرَعُ

هَآك قَلْبِي يَا حَيَاتِي نَبَّيْهِ كَيْفَ يَصْنَعُ؟  
هُوَ فِي الْقُرْبِ بَعِيدٌ عَنْكَ يَهْفُو ثُمَّ يَجْرَعُ  
أَهْ! كَمْ يَجْنِي حَيَاتِي! أَهْ مِنْ شَوْقٍ مُضَيِّعٍ!  
وَعِبَادَاتٍ تَنَاهَتْ فَأَبَتْ لِي كُلَّ مَطْمَعٍ!

ونحن لا نستطيع أن نستقصي بالدرس والتحليل كل ما قاله الشاعر في هذا الديوان من شعر الحب والوجدان، ويكفي أن نعرض عليك زهرات من رياض حبه الأول لتعرف أن الرجل كان يعاني لوعة حب صادق، وأنه كان يتفجر عن معين عذب سائغ، على حين كان كثرة معاصريه في الوقت ينحتون من الصخر شعراً فاتراً، يتغزلون به في «ليلي» و«هند» و«دعد» و«الرباب» و«مي» دون أن ينبض قلبهم بحب أو يختلج بعاطفة! ولكن لن نخرج من الكلام عن غزله حتى نختمه بموشح رائع، هو في الواقع مسك الختام، وفيه يتجلى لك مذهب أبي شادي الشعري واضحاً قوياً، وإنه ليدلنا دلالة واضحة على أن هذا المذهب ليس وليد الدراسة الجديدة أو وليد اليوم، ولكنه يرجع إلى مبدأ عهده بالشعر، فهو رسالة، كأنه أمر بتبليغها، مهما ناله في سبيلها. فاستمع إلى هذا الموشح «طاقة أنغام» تجد فنوناً من المعاني الجديدة، كما تجد ولعه بكل ما هو فني وبكونه المليء بالمعاني التي غابت عن كوننا نحن:

إِذَا اسْتَمَعْتُ إِلَيْكَ	فَتِنْتُ مِنْ تَوْقِيْعِكَ
كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ	عَيْنِي بِمَجْلَى رَبِّيْعِكَ
أَصْغِي إِلَى هَذِهِ الْأَلْحَانِ زَاهِيَةٍ	كَأَنَّهَا نَحْبُ الْأَزْهَارِ لِلْعَيْنِ
فَكُلُّ لَحْنٍ لَهُ لَوْنٌ يُضِيءُ بِهِ	وَجَمْعُهَا طَاقَةٌ مِنْ زَهْرِكَ الْفَنِّيِّ
وَكُلُّ لَحْنٍ لَهُ عِطْرٌ يَفُوحُ بِهِ	وَإِنْ تَخَيَّلَهُ غَيْرِي مِنَ الظَّنِّ
وَأَنْتَ كَوْنِي، وَكَوْنِي فِي حَقِيقَتِهِ	جَمُّ الْمَعَانِي الَّتِي غَابَتْ عَنِ الْكَوْنِ
إِذَا اسْتَمَعْتُ إِلَيْكَ	فَتِنْتُ مِنْ تَوْقِيْعِكَ
كَأَنَّ سَمْعِي لَدَيْكَ	عَيْنِي بِمَجْلَى رَبِّيْعِكَ

ولا أبيح لنفسي التعليق على هذه القطعة الفريدة، فإن كل تعليق مهما دق لا يوفيهما حقها، وإنما أقول لك: اقرأها مرة ثانية وثالثة فإنك ستلقى فيها فنوناً من الغذاء الروحي، قلما تقع على مثلها في ديوان بجملته لشاعر آخر في عصر لم يُعرف معظم

شعرائه غير التقليد والمحاكاة، ولا عجب في ذلك فالشاعرية لا تتقيد بسنن أو عصر أو ثقافة.

وبعدُ، فنريد أن نعرف هل في الديوان الأول للشاعر أبي شادي ما يدل على ولعه بالطبيعة وفنائها فيها هذا الفناء الذي يتجلى في مثل قصائده: بحر السماء، الأشعة الصادرة، أستاذي المصور، أمنا الأرض، الشروق الهادي، حزن الفجر، صلاة الصباح، وغيرها من القصائد التي يندمج فيها بالطبيعة، وتندمج الطبيعة فيه؟ والجواب على ذلك هين سهل، فأنت إذا قرأت ديوان (أنداء الفجر) تستطيع أن تعثر للشاعر على مقطوعات هي في الواقع بذور صالحة لشغفه بالطبيعة، وعباداته إياها، فقصيدة «موسيقى الوجود» ليست إلا فناء أمام جمال الكون وجلاله وتقديسًا لمظاهر الوجود الرائعة:

حَدَّثُونِي عَنِ الْوُجُودِ الْمَغْنِيِّ	كُلُّ مَا فِيهِ صَادِحٌ يَتَغَنَّيْ
مِنْ جَمَادٍ وَمِنْ نَبَاتٍ وَأَحْيَاءٍ	فَلَيْسَ الْغِنَاءُ فِيهِنَّ يَفْنَى
وَعَجِيبٌ إِذَا تَنَاءَيْتِ عَنِّي	لَمْ أَجِدْ لِلْغِنَاءِ فِيهِنَّ مَعْنَى
وَإِذَا مَا ظَفَرْتُ مِنْكَ بِأَنْسِي	صَارَ هَذَا الْوُجُودُ لَحْنًا وَفَنَّا

واقراً له مقطوعة «حياتان» تجد فيها هياماً بالطبيعة لا حد له، ففي مناجاته إياها يرى السعادة، وفي الابتعاد عنها يعاني الشقاء، وفي حمى إخوته من طيور ونبات يبدو له وحي أمه الطبيعة رائعاً جذاباً:

أُمِّي (الطَّبِيعَةُ)! فِي نَجْوَاكِ إِسْعَادِي	وَفِي ابْتِعَادِي أُعَانِي دَهْرِي الْعَادِي
وَفِي حِمَى إِخْوَتِي مِنْ كُلِّ طَائِرَةٍ	وَكُلِّ نَبْتٍ نَبِيلٍ وَحَيْكِ الْهَادِي
مَا بِأَلْهَا هِيَ صَفْوِي وَحَدَهَا فَإِذَا	رَجَعْتُ لِلنَّاسِ لَمْ أَظْفُرْ بِإِسْعَادٍ؟
كَأَنَّهَا النَّاسُ أَعْدَاءُ: فَبَعْضُهُمْو	حَرَبٌ لِبَعْضٍ، وَحَسَادٌ لِحَسَادٍ!

بل إن هذه المقطوعة لتذكرنا بشقيقتها «أمنا الأرض» من ديوان (أطياف الربيع):

أُمَاهُ إِنَّ لَدَيْكَ صَفْوَ حَنِينِي	وَأَلَيْكَ مَرْجِعُ فَرْحَتِي وَأَنْبِي
أَلْقَاكِ فِي كَنْفِ السُّكُونِ عِبَادَةً	وَأَقْبَلُ التَّرْبَ الَّذِي يُحْيِينِي



وَأَرْوْحُ أَعْشَقُ كُلَّ مَا أَنْجَبْتِهِ      فَجَمِيعُهُ شِعْرٌ إِزَاءَ حَنِينِي  
 مَا النَّحْلُ، مَا هَذِي الدَّوَّاجِنُ كُلُّهَا      وَالْغَرْسُ إِلَّا الشَّعْرُ مَلَأَ رَنِينِي  
 وَأَرَى الأُلُوهُةَ فِيهِ بَيْنَ تَوَثُّبٍ      وَتَطَائُرٍ، وَوَدَاعَةٍ، وَسُكُونٍ  
 وَالنَّاسُ تَعَجَّبُ مِنْ تَوَزُّعِ خَاطِرِي      وَهُوَ المَوْحِدُ فِيكَ غَيْرَ غَبِينٍ  
 أُمَاهُ! مَوئِلُ كُلِّ لَبِّ شَاعِرٍ      نَجْوَاكِ فَهِيَ مَفَاتِنِي وَفُنُونِي

وإذا كنت قد عرفت الآن أن ولع الشاعر بالطبيعة أصيلٌ في نفسه منذ حدثته، فإني أريد أن أزيدك علمًا بشخصيته، وأنها واضحة قوية في ديوانه الأول، كما هي واضحة قوية في ديوانه الأخير، وأنت تستطيع أن تنقل قصيدة من (أنداء الفجر) إلى (الينبوع) وقصيدة أخرى من (الينبوع) إلى (أنداء الفجر) فلا تكاد تحس أن هناك فارقًا، وذلك مما يدل على أن شاعرنا مطبوع وأن شعر صباه يستطيع أن يقف مع شعره الأخير جنبًا لجنب، دون تواضع أو استخفاء. ولا أظنك الآن بحاجة إلى أن نحدثك عن خصائص شعر أبي شادي فهي جلية واضحة، وقد سبق أن ألمعنا إليها.

وكنت أحب أن أحدثك أيضًا عن وطنيات أبي شادي، وفلسفته، وحبه العام، وإنسانيته، لولا خشية الإطالة، فليكن لذلك بحث آخر، وعسى أن أكون قد وفيت الشاعر بعض حقوقه، فكم له علينا وعلى الأدب والشعر من أياٍ بيضاء، وبحسبه أن قد بعث الشعر من مرقد، واستثار عناية النقاد بالشعر إلى درجة بعيدة، حتى قامت حوله معارك خطيرة، ودفع الشعراء في طريق التجديد والإنتاج الصحيح، كما قضى على النظم السطحي في المناسبات الطارئة، هذا النظم الرخيص الذي يُنسب زورًا إلى الشعر. وما أحوج ناقدٍ أبي شادي أن يتذكروا دائمًا بيته المشهور:

كُنْ أَنْتَ نَفْسِي وَأَقْتَرِنُ بِعَوَاطِفِي      تَجِدِ المَعِيبَ لَدَيَّ غَيْرَ مَعِيبٍ!

وستريهم الأيام خطرَ رأيهم فيه وفي شعره، فالأيام وحدها هي الفيصل، وهي لا شك كفيلة بالإنصاف.

عبد العزيز عتيق

## (٣) مطران وأثره في شعري

## بقلم صاحب الديوان

لو لم أهدِ مَنْ أهديتُ إليها هذه المجموعة الأولى المستقلة من شعري لَمَا قَلَّ سروري بإهدائي إياها إلى أستاذي الجليل خليل مطران، فقد عرفتُ محبة هذا الرجل الإنساني وأستاذيته منذ ثلاثين سنة؛ إذ تعهدني صغيراً فبقيت أهتدي بهديه، وكان أول ناقد لأدبي وأنا لم أتجاوز بعدُ الثانية عشرة من عمري. ولي أن أقول عن تأثيره على شعري ما قاله المازني عن أدب شكري: فلولا مطران لغلِبَ على ظني أني ما كنت أعرف إلا بعد زمن مديد معنى الشخصية الأدبية ومعنى الطلاقة الفنية ووحدة القصيد والروح العالمية في الأدب وأثر الثقافة في صقل المواهب الشعرية. ومع هذا التأثير العميق في نفسي شَبَّتْ روح الثورة والاستقلال فتحملت مسؤولية خواطري وتعاييري، وبهذا الروح لم أغير كلمة من هذا الشعر الذي له في نفسي قداسة الصبا وذكرياته وإن صرَّحتُ الآن في هذه الطبعة ببعض الأسماء و ببعض المناسبات، وبهذه العقيدة ربطتني بأستاذي هذا العمر الطويل رابطة مقدسة من المحبة المتبادلة والتجاوب الشامل لم ينلَّ منها كُرُّ السنين مثقال ذرة، فكانت وما زالت مضرب المثل في عالم الأدب والصدقة.

وليس هذا هو كل شعري في سنة ١٩١٠، فقد كنتُ مكثراً — إذا جاز هذا التعبير — منذ حدثتني، وإنما هو مختارات منه، وقد سبقته مختارات نُشرت في الجزئين الأول والثاني من كتابي (قطرة من يراع في الأدب والاجتماع). فأما الجزء الأول من ذلك الكتاب فمعظم شعره من نظم الطفولة وسني ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة وأقله في الخامسة عشرة، وأغلبه تقليدي النزعة وإن تكن فيه على قلتها حسنات أصيلة. وأما الجزء الثاني ففيه من شعري ما نظمته في السادسة عشرة والسابعة عشرة متأثراً جد التأثر بتعاليم مطران، وهو بدء نضوجي الشعري. وكان مأمولاً طبع ديواني الأول كاملاً طبعة فنية فيما بعد، ولكنني نُكبتُ نُكبةً عاطفية قاسية غيرتُ مجرى حياتي فغادرتُ مصر إلى إستانبول ثم إلى إنجلترا في أوائل سنة ١٩١٢ ولبثتُ مغترباً عن وطني أكثر من عشر سنين نظمتُ فيها الكثير من الشعر كعادتي ما بين أصيل و مترجم، إلى جانب آثارِي الأدبية الأخرى وفي مقدمتها ترجمة كتاب الأستاذ نكلسون في أدب اللغة العربية، وقد تركت ترجمته في مصر مع أوراقِي الأدبية الكثيرة. وعدتُ إلى وطني في أواخر سنة ١٩٢٢ وحقيبتني مثقلة بآثار أدبية شتى ورسائل لها أهميتها مع كثيرين من أكابر الرجال

وفي مقدمتهم المرحوم محمد فريد بك، فإذا بالجمرك يتشبَّث بالاحتفاظ بهذه الأوراق وقتياً لفحصها، وقد كان سيف الأحكام العرفية مصلتاً فوق الرقاب، وإذا بهذه الأوراق لا تعود رغم ما بُدِّل من المساعي لإرجاعها، وإذا بها قد أُبديت كما أُبديت مآثوراتي التي تركتها في مصر. وما أحسب أديباً جنى عليه الاغتراب والحرب بأكثر مما جنياً عليّ، وقد ترك كلُّ هذا في نفسي أثراً أليماً جدًّا، ولولا تشجيع أستاذي العزيز مطران وأخي الحبيب حسن الجداوي لزهدتُ في نشر أي جديد من شعري، فضلاً عن جمع ما تيسر جمعه من شتيته القديم، دع عنك إعادة طبع شيء من ذلك القديم ... وأين هذا وقيمته من جيد شعري المفقود ومترجماتي وتصانيفي في أكثر من عشر سنين؟ وَمَنْ لي الآن — في كهولتي ومتاعبي — بعواطف الصبا والشباب وبتلك الأحلام الذهبية وبتلك الموسيقية الثائرة التي تلاشت أصدائها في المحيط؟

ومهما يكن من شيء ففي هذا الديوان الصغير ذكرياتٌ عزيزةٌ عندي عاطفياً وأدبياً: فأما الأولى فلمموحة في ثناياه، وأما الثانية فترجع إلى ما فيه من التجاوب مع أدب أستاذي مطران خاصة. فطلاقة التعبير وحرية التأمل والاتجاهات الفكرية الجديدة؛ كل هذه تتمثل في معظم مقطوعات الديوان وقصائده، ومنها تدرجتُ إلى مذهب تحرير النظم كما أومن بتحرير النثر، متأثراً بأدب الجاحظ قديماً وبأدب مطران نفسه حديثاً وقد تجلّى أبداع التجلي في (المجلة المصرية) التي حرَّرها ببراعة أدبية منقطعة النظر.

وقد كان والدي برغم تربيته الأزهرية عصري الروح في كثير من تصرفاته، وكان السلملك بداره الكبيرة في سراي القبة (من ضواحي القاهرة) بمثابة صالون أدبي في كل خميس، فكان يجتمع لديه الكثيرون من أهل الفضل والأدب والمنزلة الاجتماعية، وبينهم أشهر رجال الصحافة والأدب والشعر في مصر حينئذٍ، وكان واسطة عقدهم أستاذي خليل مطران. وهكذا تعلقتُ بحب هذا الرجل النبيل منذ طفولتي، وأتاح لي إصدار والدي لجريدة (الظاهر) اليومية و(الإمام) الأسبوعية فرصاً شتى للاتصال بأعلام الأدب حتى أُشربت حبَّ الصحافة والأدب منذ صغري، فجرى قلبي بأول كتابة أدبية صحفية في سنة ١٩٠٥ على أثر حصولي على شهادة الدراسة الابتدائية وقد كان لها ما كان من الشأن في ذلك الوقت، وكأنما كانت بمثابة شهادة أدبية لي أيضاً! فلا عجب إذا عُنيت في سنة ١٩٠٨ بإصدار مجلة قصصية هي (حدائق الظاهر) وبإصدار كتابي الأدبي الأول (قطرة من يراع في الأدب والاجتماع)، وإن لم يتجلَّ نضوجي الأدبي قبل سنة ١٩٠٩، وهو نضوج نسبي على أي حال لا يقاس بجانبه نضوج الشباب في هذا الجيل الحاضر. ولولا افتتاني

بمطران لكان الأرجح أن لا تثور روعي الأدبية تلك الثورة في محاولتي أن أقتفي خطواته السريعة، ولولا مطران لما اجتذبتُ عناية كل من شوقي وحافظ بي. ومطران هو الذي فرح بديواني الأول هذا على صغره أكثر من فرحي، وكان واسطة التحية الكريمة من حافظ لهذا الشعر. وقد أحببتُ في حافظ وطنياته وحماسياته الفياضة بأصدق الشعور، فسحرتني بساطتها وصدقها واعتبرتها منسجمة مع العناصر الشعرية العالية في أدب أستاذي مطران الذي رأيت فيه مثلي الأعلى ... وهكذا بقي هذا الثالوث مؤثراً في نفسي زمناً، ثم انفرد بالتأثير مطران، وإن كان هذا لا ينفي تأثري في صباي كذلك بشخصيتين بارزتين: الأولى شخصية أحمد محرم الذي أعدّه في شعره الوطني والاجتماعي أسمى منزلة من حافظ في جميع عناصر الشاعرية، ولكن له نفسية النجم البعيد المتواري لا يلمح تألقه وقوته إلا أهل البصر المديد، والأخرى شخصية مصطفى صادق الرافعي الذي لمحت فيه آيات الذكاء والشاعرية، ولكن يكاد ذكاؤه يفسد عليه عاطفته، فأحببت إلى الآن ذلك الذكاء المتوقد وقد بلغ ما كان ينتظر له بلوغه من الإبداع الأدبي والشهرة الفائقة. فهذا الديوان في حسناته من ثمار مطران الأولى وفي عيوبه من آثار سني المبكرة، ولا أحبّ لدي من نشر تهنئته التي تفيض بالغبطة الأبوية وبفرحة المعلم بتلميذه، فهي منه وإليه:

مَا بَعْدَهُ فِي عَالَمِ الشُّعْرِ مُمَهِّدًا لِلْخُلُقِ الْحُرِّ أَجْنَحَةَ النَّسْرِ إِلَى النَّسْرِ فَكَأَكُهُ مِنْ رَهَقِ الْأَسْرِ؟ أَوْجِ الْمَعَانِي قَيْدَ الْفِكْرِ؟ فِي الْعَصْرِ كَأَنْتَ حَاجَةٌ الْعَصْرِ وَأَنْتَ مُبْدِي ذَلِكَ السَّرِّ! نَظَمْتَهَا مِنْ فَاخِرِ الدُّرِّ يُبْرِزُ فِيهَا لِأُولَى الذِّكْرِ	دِيَوَانِكَ الْأَوَّلُ فَتَحْ لَهُ أَبْرَعُ مَا كَانَ بِإِطْلَاقِهِ أَضَعَدْتَ بِالْإِلْهَامِ فِيهِ عَلَيَّ عَلَامٌ لَا يَطْلُبُ مُسْتَأْسِرٌ وَمَا يَرْجِي مِنْ رُقِيِّ إِلَيَّ (رَكِيئِي) هَذِي نَهْضَةٌ لِلنَّهْيِ لِلْفَنِّ سِرٌّ ضَنْ نَهْرًا بِهِ تَشْفُ عَنْهُ الْمُحْكَمَاتُ الَّتِي فَالْحُسْنُ مِنْ كُلِّ مِظَنَاتِهِ
---	---

والناقد الأدبي المؤرخ الذي يدرس آثار مطران وآثار تلاميذه — ولي الحظ والشرف أن أكون بينهم — يجد أن روحانية هذا المعلم الجبار وقوته الفنية قد تركت في نفوسنا أبعَد الآثار، وأنا إنما نتابع رسالته في خطوات معقولة. فما نشوء الشعر المرسل ولا

الى النايبه العزيزه  
احمد مرسي ابوشوارب حفظه الله

ديوانك الاول فتح له  
أبرغ ما كان الإلهام  
أصعدت بالإلام فيه على  
علام ريطلب مستأثره  
وما برحتي من رنقته الى  
زك هدى نوضه للنوى  
لض سيرة ضن دهره به  
تشغ عنه المحكمات الفخ  
فالمحسن من كل ملهنا  
ما بعده في عالم الكرم  
سؤدا لتخلق احمره  
اجنحة السر الى السر  
فما كره من رفق الأسر  
ادوم المعاني قيده الفكر  
في العمر كانت حاجه العبر  
وانت صدي ذلك البتر  
ظننت من فاحر الدر  
يبرز فيك لادى الذكر  
خليل طوره

٢ ديسمبر ١٩٤١

(تهنئة مطران بخطه - مصغرة في النقل.)

الشعر الحر ولا ما بلغناه من الحركة التحريرية للنظم ولا ما نتناوله من الموضوعات الإنسانية والعالمية إلا الرقي الطبيعي لرسالة مطران، ولا يستطيع مطران نفسه أن ينكر ذلك بل هو يبارك بإخلاص هذه الجهود وإن شاركناه في تقدير ألوان الجمال عند مخالفينا من أصحاب المذاهب الأخرى قوية كانت أم ضعيفة، وهذا التسامح الفني - وإن يكن تسامحاً في حدود - هو خلق مطران المعهود، خلق من يفتش عن ألوان الجمال والسليقة الفنية أينما كانت وإن كان له ذوقه الخاص ومذهبه الخاص. ومنذ استحسنت صديقي الأديب حسن الجداوي أن يضم ما يتاح له من الدراسات القيمة لآثاري المنشورة مساعداً على تفهمها، وجدتُ من كثيرين من الأدباء مشاركة له في هذا الاستحسان، وعلى هذا النسق الأدبي تصدر هذه الطبعة من (أنداء الفجر). وقد

اصلاح ما هنا في الابواب احمد زكي ابو شاموس  
 اذكر حبات الطراد الى الزكي الاربوع  
 اصدرك الى قصيدة كثرية لم تنبع  
 عرفت طامه الارس عند من شمر طراد بلغم  
 حناء بارعة العالبي في نظام اربع  
 تجلي نغلي او تغيب فلك في المسرع  
 من لي بنعم الشبا ب وفكر في المنوع  
 فاجيد نورد التناء على الوض المتروع  
 قشرت في شأو العوغة منه تادار طبعي  
 اصلا بجالس ككتاب امينة المنوع  
 اصلا بناتمة البوم سه الطراد الاربوع  
 اصلا بصادح تحت قلبي واجرت مدعي  
 حافت ببول حادقا منه صادق لا بدعي  
 بنت مطاية وحده بانزك المتقطع  
 وشدت على توقيع سرب سه علم سجع  
 نعم الملائكة بين سبد و ودين مرعع  
 حسنة تادب البوم منه ككلمة العبي الاربوع  
 كوكبا له لكن وفاء الكدم غير طبع  
 وكوره فليشرع العود النقة المتروع  
 كوكزه في العبد فليك عزيم كلاسديع  
 لاشقة انزع للعلمي ببال هذا المنوع  
 عابره سناه

مسودة قصيدة مطران العينية بخطه (مصغرة في النقل)، وقد فُقد الأصل بين ما فُقد من أوراق الصبا.

كان في مقدمة من استحسنت هذا النسق صديقي الشاعر الناثر الدكتور زكي مبارك؛ لأن هذه الدراسات تنقل القارئ إلى الجو الذي يتنفس فيه الشاعر فيتبين عن كثب حقيقة خواطره وعواطفه والعوامل المؤثرة عليه، وحينئذ تستطيع أن تتذوق آثار الشاعر أحسن التذوق.

يقول الأستاذ جارود (أستاذ الشعر في جامعة أكسفورد، في دراسته للشاعر كيتس، سنة ١٩٢٦) ما خلاصته: إن الشعر الذي يستحق المطالعة ربما لا يطالعه معظمنا بالعبارة الواجبة التي قد تجعلنا أهلاً للاطلاع عليه. نحن بطبيعة الحال نطالب الشعر

بالمتعة، ولكن الشعر كذلك يطالبنا بالجهد حتى نستمتع به. فقد أُلّف الناس قراءة الشعر بغير ذلك التأهب الروحي الذي يعدُّ ضروريًّا في العبادات الأخرى وبغير التنبه الوجداني الحتمي. والناس درجات في تفهم الشعر حتى إن ورد زورث قسمهم إلى أربعة أقسام ... وما كانت دراسة الشعر العالي أو نقده بالأمر الهينة، فإن ذلك يتطلب غاية المواهب الفنية ومنتهى الثقافة والدقة حتى يوزن الشعر بمنتهى العناية والأمانة، كما يفحص الصيرفي الجواهر غير مخدوع بمظاهرها الخلابة ولا بصورها المتواضعة ... ونحن نقرأ الكثير من نقد الشعر في وقتنا هذا مسرورين لاعتبار واحد وهو تنبُّه الناس إلى أهمية الشعر بين الفنون الجميلة وأثره في تهذيب المدارك وصقل الشعور، وما هذا بالقليل في ترقية الأمة فكريًّا، ولكننا لا نكاد نُنعم النظر في معظم ما يُنشر من نقد حتى يتملكنا الأسف الشديد على ما نلحظه من الاستهتار بالدرس والنقد، وعلى تدخل عوامل خارجية (كالحزبية السياسية وما إليها) في الأحكام الأدبية، حتى جرف هذا التيار الغاشم في طريقه غير واحد من مشهوري النقاد، فأصبحنا نرى المتصنعين واللصوص من الشعراء تُخلع عليهم ألقاب العبقرية لا لسبب سوى التضليل والحزبية والاعتبارات الشخصية، ونجد غيرهم من الموهوبين يُنكر عليهم حتى التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ولو وردت نظائرها في القرآن الكريم وفي أشعار الفحول من المتقدمين مع أنها أدوات فنية لا غنى عنها للشعراء المتعمقين، وتؤخذ عليهم قوة الاندماج والتصوف فيما حولهم من عوالم جليلة ودقيقة، ويُمتهنون لتجاوبهم الكوني ولشعورهم بالشعر في كل شيء وبفنية الحياة المختلفة ... ومحالُّ إقناع هؤلاء السادة بأنهم لم يستكملوا بعد أدواتهم النقدية، ومع ذلك يجيزون لأنفسهم أن يعيبوا على الشعراء المطبوعين عدم استكمال أدواتهم الشعرية، ولو استكملوها باطلاعهم وبمرانتهم الطويلة أو بلغوا منها شأواً كبيراً، وأنه لا يكفي لنقد الشعر أن يكون الناقد شاعراً في روحه نزاعاً إلى الإنصاف، بل ينبغي أن يكون كذلك واسع الثقافة واقفاً على المذاهب الأدبية وعلى أحدث أصول النقد. وبعد كل هذا فالغالب أن يأتي النقدُ صورةً من نفسية الناقد ومن ذوقه وميوله لا من الحق المطلق الذي لن يتحقق ... فالجزم في الأحكام النقدية أو التعسف إزاء هذا إنما يكون عبثاً واستهتاراً بالشعر وبالنقد معاً.

إن من أولى تعاليم مطران التي تشبعتُ بها منذ حداثتي وجوب الاطلاع، وقد أكببت على الاطلاع المتواصل منذ نشأتي حتى كنت أقلب «الأغاني» وغيره من أمهات الأدب العربي الميسورة في منتصف العقد الثاني من عمري تقليب المستهام بها، كما أن من

أولى تعاليمه ترك التصنع والحذقة وإرسال النفس على سجيته ولكن إرسال المستعد المتمكن لا إرسال المستهين المهمل. وقد علقنا بهذه المبادئ وطبقناها وترعرعت في نفسي وفي أدبي، فإذا خطوت تحت تأثيرها خطوات جريئة غير مسبوق إليها فلا يعني هذا بتر صلتني بها وإنما يعني برِّي التام بروحها وغايتها. ولو تدبر الزملاء الناقدون وحاولوا التخلي عن المؤثرات الشخصية ونحوها لما وجدوا في تصرفاتي ونزعاتي الأدبية وفي تصرفات أقراني ونزعاتهم إلا تقدمًا طبيعيًا بتعاليم مطران التجديدية، فالحياة حركة واطراد وأما السكون فهو العدم.

يعتمد الشعر التقليدي وكثير من الشعر الحديث على الاستهواء الموسيقي لتخدير الأعصاب، ذلك التخدير الخفيف الذي يجعل المشاعر قابلة للتأثر برسالة الشاعر أقوى التأثير. ونحن لا نعيب اقتران الشعر بالموسيقى، وكيف نعيب ذلك وقد نظمنا ما نظمنا من المسرحيات الغنائية ومن شعر الغناء وبينما نرى خيرًا كثيرًا في تزاوج الفنون الجميلة؟ ولكن ما نعيبه هو عبودية الشعر للموسيقى حيثما ينبغي أن تكون للشعر سيادته، فبدل استهواء المشاعر بالأوزان والقوافي الرتيبة وحدها، نرى أن الشعر جدير بأن تكون له ذاتيته المستقلة الجميلة المؤثرة، وأن يكون الاستهواء والتأثير الوجداني منه ذاتيًا، أي من إحياء المعاني ومن روعة الخيال، لا من الموسيقى اللفظية أولًا وأخيرًا. والشاعر الذي يقول:

الشَّاعِرُ السَّاحِرُ مَنْ أَسْكَرَهُ؟!      مَنْ عَلَّمَ الشَّاعِرَ هَذَا الشَّرَّهَ؟!  
عَيْنَاكَ يَا رُوحِي وَيَا نِعْمَتِي!      عَيْنَاكَ إِلَهَامُ الَّذِي صَوَّرَهُ!

إلى آخر هذا الشعر الغنائي، وقصائد أخرى كثيرة مثله، لا يشقُّ عليه أن يلتزم هذا الطراز من الأداء الخلاب الرنان، ولكنه يؤثر أن يؤدي رسالة «الشعر بالشعر للشعر» وهي التي يعتبرها مربية للمواهب الشعرية ضامنة لاستقلالها، حتى إذا ما أراد الشاعر في أي وقت تزواجها والموسيقى اللفظية كانت رائدة ولم تجئ تابعة، بعكس شعر العامة والشعر البدائي الذي تكون فيه الموسيقى هي الغالبة، وهو الشائع الآن. ولا أستطيع أن أدعي أن في هذا الديوان شاعرية تفوق ما فيه من موسيقية، ولعل هذا هو سر رضاء أصدقائي المحافظين عنه رضاء خاصًا، بعكس دواويني الأخيرة التي تتجلى فيها الشاعرية المسيطرة كل التجلي فتؤثر فورًا على النفوس المهياة لها ولا تتحايل عليها بالإيقاع الرتيب، فهذا الشعر الجديد المتحرر لا يرضى عنه أصدقائي المحافظون.



ومن هؤلاء الأصدقاء مَنْ يعرف مبلغ عنايتي بنقد نفسي بنفسي بشدة وقسوة، فلا يتورط في اتهامي بالإهمال أو بالعجز عن البيان التقليدي؛ لأنه يعلم علم اليقين مبلغ طواعية اللغة لقلمي نظماً ونثرًا، وإن لم أقنع أبدًا بإننتاجي. ومنهم مَنْ لا يعرف ذلك فيتورط ذلك التورط، ويساعدُ سكوتي وقلة مبالاتي على سريان العدوى إلى النقاد — وحتى إلى أذكيائهم — فيعرفون بما لا يعرفون عن طاقتي البيانية وقدرتي على التعبير، في حين أنني لو شئتُ لجعلتُ كل شعري في مثل ذلك الأسلوب المدرسي الذي رثيتُ به المثال مختار فهللوا له طويلاً وتمنوا عليّ الإكثار منه، وقد جاء في استهلاله:<sup>١</sup>

مناحةَ الفنِّ! ماتَ الفنُّ والعِيدُ وَماتتِ اليُومَ في الجوّ الأناشيدُ!

ولو تدبروا وتفهموا لما لجأوا إلى مثل ذلك النقد العجيب، ولحصروا همهم في دراسة مذهبنا الفني في الشعر، معتمدين على القوة الشعرية في ذاتها لاستهواء المشاعر حتى يؤدي الشعر رسالته، من إعزاز الخير وتقديس الجمال، تأدية حرة قوية مستمدة من صميمه، فلا يكون فيها تابعاً لفن آخر ... ونتيجة هذا المذهب تقوية المواهب الشعرية إلى درجة بعيدة، فلا نعود نسمع أن الشعر شعر قبل كل شيء، وأن القائل المتوجس: «إني لأسمع صوتاً يقطر منه الدم!» هو شاعرٌ شاعرٌ وإن لم تقع ألفاظه في نسق موسيقي، ولا في سلك منظوم وإن لم يعده قومه شاعرًا.

وأكرر أنني أعد مذهبي هذا هو وحده التطور الطبيعي لمذهب مطران. ومما يؤسف له أن يتصدى لنقدي وللنقد الأدبي عامةً كثيرون ليست لديهم المؤهلات لذلك ولا الموهبة النقدية، وهؤلاء يفسدون بجلبتهم الجوّ الأدبي ويؤثرون عن طريق الإيحاء النفساني حتى على خاصة النقاد أو على بعضهم أحياناً فيخلطون خلطاً في أحكامهم، حتى لا يتورّع معظمهم عن الحكم على الأعمال المتزنة بالإسفاف، متناسين أن الأديب الناضج المطاع لا يمكن أن يسف، وإنما تنوع آثاره يوهم الناقد السطحي أن فيها العالي والمتوسط والمنحط، بينما لا تكون إلا صوراً مختلفة من الحياة المتنوعة التي يعالجها، فحتم أن تجيء مختلفة البيان والروح والقوة والموسيقى حتى تنسجم وموحياتها وظروفها. ولن

<sup>١</sup> مجلة أبولو، أبريل سنة ١٩٣٤، ص ٦٩٧.

يكون النقد لشاعر من الشعراء منصفًا — على فرض أهلية الناقد — إلا إذا أخذ جميع آثار الشاعر كوحدة أدبية متماسكة.

وإذا ضربنا صفحًا مؤقتًا عن الشعراء ونظرنا إلى المصورين أمثال محمد حسن ومحمود سعيد وشعبان زكي، فإننا نجد الأوَّلَ في تصوير أشخاصه يميل إلى نزعة تصوفية تمثل كنه المرسوم وشخصيته المستترة، بينما يميل الثاني إلى ما سميته بالفن التوكيدي الذي يجعل الصورة كالتمثال المجسم الحي، في حين أن الأخير يحن دائمًا إلى التعبير التأثري الذي يعطيك في نظرة خاطفة الشمائل البارزة للصورة. ولك ولي أن نختلف على أيٍّ من هذه المذاهب أفعل في نفسك وفي نفسي، ولكن ليس لي ولا لك أن نتهم أحدًا من هؤلاء الفنانين البارعين بالعجز وأن اختيار هذه الطريقة أو تلك راجع إلى قصور في الأداء بدل رجوعه إلى اختلاف في الذوق الفني، بل الأوَّلُ بي وبك أن نتفهم رسالة كل منهم في تقدير واحترام وإن لم تجذبنا إلا إحداهما، فكل منهم أستاذ لمدرسته. وهذه الروح السليمة هي التي ما تزال تنقص نقاد الأدب عندنا لتضع حدًا لأحكامهم المدهشة ولشططهم وتهورهم.

يقول أستاذي مطران في تصدير (ديوان الخليل): «قال بعض المتعنتين الجامدين من المتنطسين الناقدين: إن هذا شعر عصري، وهموا بالابتسام، توهم أن من بوارق أسرتهم ما يكون أشد من وقع السهام. فيا هؤلاء، نعم، هذا شعرٌ عصريٌّ وفخره أنه عصري وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر. هذا شعر ليس ناظمه بعبده، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع وقاطع المقطع وخالف الختام، بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضعه وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها، وفي تناسق معانيها وتوافقها، مع دور التصوُّر وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة وشفوفه عن الشعور الحر وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر ... على أنني أصرح غير هائب أن شعر هذه الطريقة — ولا أعني منظوماتي الضعيفة — هو شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعًا.» وقد سمعتُ من أستاذي مطران في مدى السنين الطويلة التي نعمت فيها بصدافته وأستاذيته الكثير من الشواهد والتفاسير لهذا المذهب الذي تعلقْتُ به نفسي منذ نعومة أظفاري وعملتُ تدريجيًّا على التوسع فيه توسع النشوء والارتقاء عن طبع مُؤاتٍ، متابعًا نضوج سني ونمو ثقافتي وازدياد تجاربي وتأملاتي، فتطورت لغتي كما تطور العصر

الذي نعيش فيه، وتطورت نفسياتي التي أحببت وتعدبت وساحت وجربت، وتطورت تبعاً لذلك أخیلتي وتعابیري ومثلي العلیا. مثال ذلك تجاوبی والطبیعة، فقد كان ذلك محدوداً فی دیوانی الأول، تقلیدی العبارة غالباً، ولكنه لم یكن تقلیدی النزعة بل مستمداً من الحیاة ذاتها كما فی قصیدی «أنفاس الخزامی» (ص ٤٩)، فإنی نشأت أحب هذه الأزهار وأحب النحل التي شغفتُ بها منذ سنة ١٩١٠ ولاحظتُ افتتاحان النحل بها، ثم تبینت من أستاذی فی علم النبات أنها أزهار مصریة صمیمة فإزاد إعجابی بها. وفی القصیة المذكورة بعض التطلع إلى المعنویات ولكنها لا تقارن بقصیدی «حلم الفراشة» (ص ٧٧ من دیوان «الینبوع») التي أقول فیها:

تَطِيرُ إِلَى الزَّهْرِ فِي خَفَةٍ	لِتَمَنِّصَ مِنْهَا الرَّجِيقَ الشَّهِي
وَمَا تَتَمَنَّى سِوَى زَهْرَةٍ	تُبَادِلُهَا لَوْنَهَا الْقُرْمُزِي
تَحُومُ عَلَيْهَا وَتَنْشُقُ مِنْهَا	جَمِيلَ الشَّدَى، فَالشَّدَى نَفْسُهَا
وَتَأْبَى التَّحَوُّلَ فِي النُّورِ عَنْهَا	فَإِحْسَاسُ زَهْرَتِهَا حِسُّهَا
كَأَنَّ بِزَهْرَتِهَا أَصْبَحَتْ	فَرَأَشْتُنَا الْحُلُوهَ الْعَائِرَةَ
وَتَلِكُ الْفَرَّاشَةَ حِينَ انْتَشَتْ	عَلَى النُّورِ زَهْرَتُهَا الطَّائِرَةَ
تَبَادَلَتَا مَا لِكِلْتَيْهِمَا	مِنَ الْحِظِّ وَالصُّورَةِ الْفَاتِنَةَ
فَصَانَ التَّبَادُلُ نَفْسَيْهِمَا	وَعَاشَا بِهِ عَيْشَةً أَمْنَهُ!

\* \* \*

كَذَلِكَ تَحْلُمُ فِي لَهْوِهَا	فَرَأَشْتُنَا الْحُرَّةَ الْبَاسِمَةَ
فَدَعَا تَغَازُلَ فِي وَهْمِهَا	خَيَالَاتِ سَاعَاتِهَا الْحَالِمَةَ

فهذه الأبيات هي وليدة الطبيعة التي أعشقها والتي تلقيت عن مطران كما تلقيتُ عن صميم وجداني إيماني بها. وهي متحررة في أسلوبها، عصرية الألفاظ، آخذة بأيسر وأصدق مذاهب البيان، ولكنها إلى جانب ذلك قوية الخيال مندمجة كل الاندماج في الطبيعة. وليس تشبيه الزهرة بالفراشة بالتشبيه المستحدث، فهو شائع في الأدب العالمي، ولكن هذه الصورة المركبة المتشعبة الدقيقة بأخیلتها ومعانيها هي صورتی، ولا يمكن أن يكون لغيري أي نصيب فيها، لأنها من صنع نفسي وخيالي وعبادتي للطبيعة ومن توليد شاعريتي الحرة. وأنا أدين في كل هذا لمطران، فقد غرس في نفسي حب الاطلاع

على سفر الطبيعة، إلى جانب اطلاعي العام الذي شمل مئات الكتب والمراجع في ثلاثين عاماً سلختها محبتي للأدب من حياتي، كما غرس في نفسي الاعتداد الفني الذي يزجيني بعد كل هذا إلى إرسال شعري على سحيتي.

وقد تعلمتُ من مطران احترام المذاهب الأدبية المختلفة واحترام النقد، مهما حق لي أن أتشبث بأرائي الخاصة، فإن الأعمال الأدبية بعد إنتاجها ملك للجمهور، والجمهور حر في أن يُقبل عليها أو لا يقبل، والطبائع الإنسانية جد مختلفة، وللنقاد كل الحق في حرية النقد فيجب احترام حريتهم كما نطالبهم باحترام حرية المؤلفين، ولا يجوز أن يعدو نقاشهم البحث الأدبي المحض الذي يستفيد منه الأدب، لا أن يكون لونها من الملاكمة التي تخالف أدب النفس. ولعلي وفقت في حياتي الأدبية إلى تطبيق تعاليمه هذه، وإن تعصب لي في مواقف كثيرة من تعصب من أصدقاء ومريدين.

ولا شك في أن نفسية مطران المتسامحة المستوعبة هي التي ألهمتني حب الجمال على اختلاف صورته وكراهية الفردية ورغبتني الملحة في التفتيش عن مواطن الحسن في كل ما أقرأ من نثر ونظم. فمذهب الفردية في الأدب لم يؤمن به مطران بل كان ضده دائماً، وكذلك كنتُ وما زلت ضده كما تدل كتاباتي الكثيرة وأحدثها كتاباتي في مجلة (أبولو)، واحترام الغير وبغض الإباحية هو في نظرنا كاحترام النفس والحرص على الكرامة سواء بسواء، فاعتدأنا بمذهبنا الأدبي وإنتاجنا لا ينافي تقدير مجهودات من يخالفنا مذهباً ولا يسيخ إباحتها والاستهتار بها. ولذلك أنحى مطران كما أنحيت على من يختطفون خواطر شعراء الفرنجة وغيرهم في غير تورع، بل في انتقاص لمن ينقلون عنهم ... فلكل شاعر أن يطلع، بل عليه أن يطلع، وأن يهضم ما يطالعه، وأن يتأثر بمن يعجب بهم، ولكن عليه بعد هذا أن لا يسقط شخصيته، وعليه أن يرسل نفسه على سحيتها، وأن يعترف بفضل من تأثر بهم حيثما وُجدت المناسبات، وتبعاً لذلك كانت إشارتي إلى الشاعر جبرائيل سيتون وإن كنت لا أذكر الآن مبلغ تأثري بشعره عندما نظمت أبيات موسيقى الوجود (ص ٦٤) فإني لم أهتدِ إلى قصيدته المشار إليها.

وإذا أخذنا على سبيل المثال الشاعر الروسي بوشكين حامل جائزة نوبل في الآداب فلا جدال في أنه تأثر بشعراء كثيرين من شعراء الغرب كما تأثر شكسبير في إنجلترا وجيته في ألمانيا، بل وعباقرة الشعراء في أنحاء العالم، ولكن تغلبت شخصياتهم على أعمالهم في النهاية، وهذا ما اعترف به دستوفسكي في رسالته عن الشاعر بوشكين. ولقد تأثرتُ بمطران وشوقي وحافظ ومحرم والرافعي في نواحٍ مختلفة، ولم أنكر مرةً فضل

هؤلاء الأعلام، حتى في الوقت الذي ثارت ثائرة المدرسة الشوقية على الشعراء المجددين ونالني الكثير من لفحات نيرانها، فإنني أبيتُ إباءً مجاراةً أصدقائي الذين تعصبوا لي أشد التعصب ... فإذا تجلت شخصيتي وازداد تجليها وسيطرتها التامة على عناصر شعري وقد دانيت منتصف العقد الخامس من عمري فليس في ذلك بدعة، بل لي كل الحق في التمكين لمذهبي الحر الذي اعتبره متفرداً على مذهب مطران أو صورة منه هي صورة الرومانطيقية الشاملة.

يُذكر بالخير لسانت بيف انتصافه للشاعر الوجداني ألفريد دي موسيه من زميله ومنافسه الشاعر الشهير لامارتين، وهو انتصاف قوامه الشجاعة الأدبية الجمّة. وكم بوذيّ أن أرى مثاله متكرراً أمامنا، فتنصف مواهب شعراء الشباب بدل هذه الغيرة الحمقاء التي نراها من بعض الكهول والشيوخ شعراءً ونقاداً. وروح الإنصاف هذه ملموسة عند مطران، ولولاها لما أنصف مثلي في دوائر الخاصة على الأقل، فهذا فضل آخر لمطران كان له أثره البهيجُ في شعري بقدر ما كان لوجود البيئة عامة من آثار أخرى في شعري الثائر.

الشخصية الفنية الحرة — بل حسبي أن أقول الشخصية الفنية — هي أهم ما يقده مطران، وهي ما تعودتُ أن أقده في ذاتي وفي غيري صديقاً كان أم خصيماً، وما أعرف إلا الخصومة البريئة: خصومة التفكير، وأما ما عداها فليس أهلاً لأن يعد خصومة، بل هو ما يُزدرى ويُسى. وهذه الشخصية الحرة هي روح شعري، وأبى أن يُنكر علي استحقاق حريته، فقد عشت وما زلتُ أعيش تلميذاً على الطبيعة وعلى الثقافة الإنسانية، أجمع بين الاعتداد بنفسي وبين نهم الفنان الذي لا يرضى عما بلغ من مستوى فني ولا تنتهي مطامحه، فهو يتشبث بمذهبه وباعتداده وبكرامته، ولكنه في الوقت ذاته يعزف عن التصنع الشائع وعن الادعاء الباطل وعن الكبرياء السخيفة، فهذه ألوان من التزوير التي تعادي روح الأدب الصميم، وما ابتلي أحد بها إلا كان شراً على الأدب والأدباء. وما ترجع المعارك الدامية المشبوبة الآن بين الأدباء عامة إلا إلى هذا الطراز من المتصنعين والأدعياء، بلغت ما بلغت مكانتهم وذكاؤهم وآثارهم، ومعظمهم ممن انغمسوا في السياسة انغماساً طغى على ضمائرهم وعلى موازينهم الأدبية.

وصفوة القول إن أثر مطران في شعري هو أثر عميق لأنه يرجع إلى طفولتي الأدبية ويصاحبني في جميع أدوار حياتي، وإذا كان استقلالي الأدبي متجلياً الآن في أعمالي فهو في الوقت ذاته يمثل الاطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من ذلك

## دراسات أدبية

الأستاذ العظيم، وما زالت تحرص عليها نفسي الكهلة الوفية ناظرةً إلى آثار الصبا وإلى معلمي الأول بحنان عميق هو أشبه الشعور بالتقديس والعبادة.